المكتبة الثقافية
١٣٧

الرسول صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته، ونفحات من هديه

الدكتور عبد الحليم محمود

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٥ يولية ١٩٦٥

المكتبة الثقافية
١٣٧

الرسول ﷺ

لمحات من حياته ، ونفحات من هديه

الدكتور عبد الحليم محمود

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٥ يولية ١٩٦٥

توزيع

مكتبة مصر

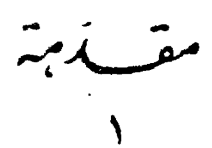
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

((يا أيها النبي ، انا ارسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا)) .

بسم الله الرحمن الرحيم



١

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله عليه ، فى كثير من سوره ، يقول سبحانه :

« يا أيها النبى ، انا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا » .

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا » .

ويقول سبحانه :

« قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

ومن اجل هذه الصلة الالهية برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ، ارشدنا الله ، سبحانه وتعالي ، الي اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

بل امرنا سبحانه ، أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهى عما نهانا عنه ، وهددنا اذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب » .

أما السر فى ذلك فهو :

١ ـ أن الرسول ، صلوات الله عليه : لا ينطق عن الهوى ، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ؛ ولقد اقسم الله ، تعالى ، على ذلك فقال سبحانه :

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » .

٢ ـ كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، فى جميع أحواله : حركة وسكونا ، اشارة ونطقاً ، قلبا وقالبا : يمثل القرآن الكريم ، وقد كان صلوات الله عليه ، تطبيقا للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهرا وباطناً ، لقد « تَقَرآن » ـ اذا أمكن هذا التعبير ـ أو ـ بتعبير آخر ـ لقد كان قرآنا .

ولقد وصفته السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وصفا دقيقا ، حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » ،

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله ، سبحانه وتعالى ، اذ يقــول :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

٢

والحق أننا حينما نريد أن نكوّن صورة واضحة تامة عن رسول الله ، صلوات الله عليه ، فان الطريق الوحيد لذلك : انما هو الاحاطة بالقرآن احاطة واضــحة تامة ؛ والاحاطة بالقرآن على هذا النسق : ليست من الســـهولة بمكان ، بل ليست بممكنة ، فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للانسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر ، وهذه المعانى الجديدة : انسانية عامة أو فردية شخصية : انما هى ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والعكس ايضا صحيح ، فان المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق الســيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة ، يفهم عن الرسول ، صلوات الله عليه ، كل يوم جديداً ، وهذا الفهم : انما هو تفسير وايضاح لجوانب من القرآن الكريم .

لقد امتزج الرسول ، صلوات الله عليه ، بالقرآن ــ كما

قدمنا ــ روحا ، وقلبا ، وجسما ، وامتزج القرآن به عقيدة واخلاقاً وتشريعاً ، فكان ، صلوات الله عليه : قرآنا يسير فى الناس ، وكان القرآن روحا ينتقل ، وكان قلبا ينبض ، وكان لسانا ينطق بالهداية والارشاد .

ولقد كان ، صلوات الله عليه : حريصا كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الاسلامية : القرآن : لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول ، صلوات الله عليه ، من الأمة فيقول ، سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

ويتحدث ، صلوات الله عليه ، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

« مثلى ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلّتون من يدى » .

هذه هى صلة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بربه ، وهذه هى صلته بأمته .

لقد ارتفع ، صـــــلوات الله عليه ، الى السماء ، بل وتجـــاوزها الى ســـــدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى . لقـــد ارتفع الى الأفق الأعلى ، وتجاوز بذلك

النهايات الكونية ، لقد كان فعلا : أدنى من قاب قوسين ، فانغمس فى الأفق الأعلى ، وتلقى ، عن الله مباشرة ، كيفية الصلة به ، وهى الصلاة ، ثم ... ثم انبسط الى الأرض سراجا منيرا ، رءوفا رحيما ، هاديا ، يدعو الى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله ، صلوات الله عليه ، الى السماء ، ثم عاد الى الأرض ، أقسم بالله ، لو صعدت الى السماء لما حاولت العـــودة الى الأرض مرة اخرى » .

بيد أن الرسول ، صلوات الله عليه : نبى ورسول ؛ فهو متصل بالله دائما : انه فى السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة انه كان — على حد تعبير القرآن : « بشرا رسولا » فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله ، انه مع النـــاس بارادة الله وتوجيهه وأمره ، انه مع النـاس بكلمة الله ورسالته ، انه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : انه دائما : مع الله ، أو يمكننا أن نقول : انه — منذ اللحظة الأولى للبعثة — : لم ينزل الى الأرض قط ، وانما كان دائما مع الله سبحانة وتعالى ، فهو ، صلوات الله عليه ، يبيت عند ربه ، يقــول صلى الله عليه وسلم :

« لست كهيئتكم : أبيت عند ربى ... »

٣

« قل : انما انا بشر مثلكم ، يوحى الى » .

انه ، صلوات الله عليه : « بشر » ، وما يجول فى خلد مسلم قط ان يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله عليه « بشر يوحى اليه » .

وما يتأتى قط : ان يوحى الله الى بشر الا اذا أصبح ، وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

ومنتهى القول فيه : أنه بشر ... وانه خير خلق الله كلهم .

٤

وبعض الناس ، حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه الآية الكريمة :

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى »

يقف عند كلمة : « بشر » فيحاول التركيز عليهـا ، وتوجيه الانتباه كله اليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ، ويبرزها ، ويندفع

فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعا ، لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى الى » ، بل انه فى اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى الى » ويهملها اهمالا .

انه ليس بنادر فى العصر الحاضر أن يجرأ بعض الناس ، فيتحدث عن الرسول ، صـــلوات الله عليه ، وعن خطئه ـ معاذ الله ـ فى الراى ، وعن اصابته فيه ، ويسير هذا البعض فى حديثه أو فى كتابته مستنتجا ومستنبطا وحاكما ، وينسى فى كل ذلك :

« وما ينطق عن الهوى » وينسى فى كل ذلك :

« يوحى الى » ، وينسى « لست كهيئتكم » ، وينسى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » ..

وينسى أن بعض المســائل يمكن ، أن تكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الاســلامية أن رسوله صلوات الله عليه ـ وهو على صواب دائما ـ انما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حـــلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه ، سبحانه ، من الرحمــة ، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الاسلامية العام :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

والله ، سبحانه ، ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن ، أن يقف فيها الرسول ، صلوات الله عليه ، مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك الي الرافة الرحيمة ...

أن الله ، سبحانه وتعالى ، ببيانه ذلك ، أنما يمدح الرسول ، صلوات الله عليه ، ويبين أن منزع الرحمة انما هو الغالب عليه ، صلوات الله عليه .

ولم يلغ الله ، سبحانه ، اتجاها عاما سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية أقرها ، صلوات الله عليه ، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله : فما كان ، صلوات الله عليه ، يسير الا على هدى من ربهوعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

« وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله . . . »

وما فعل الله فى كل ما تمسك به لمنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون الا بيان رحمة الرسول ، صلوات الله عليه ورأفته : أى ، أنه ، سبحانه ، كان يبين فى هذه المواطن فضله ، صلوات الله عليه ، وأنه ـ كما وصفه ، سبحانه ـ : على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية ، وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يُركَز عليها ولا يلْتَفَتَ لسواها .

ولنضرب لذلك مثلا : ان الذين ديدنهم الجدل : يتحدثون كثيرا عن قوله ، تعالى : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ؟ » ويقذفون مباشرة بقولهم : ان العفو لا يكون الا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : ان الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنه قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟ .

غفا الله عنك ، لم تعَنّى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول :

رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الارهاق .

ان الآية القرآنية من هذا الوادى .

وضم هذه الآية الكريمة الى أختها التى فى سورة النور : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم ، فأذن لمن شئت منهم » تجد المعنى واضحا جليا ، وهو أن الله ، سبحانه ، فوّض الأمر لنبيه ، صلوات الله عليه ، فى أن يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبى اذن معاتبا بهذه الآية ــ وحاشاه ــ بل كان ، صلى الله عليه وسلم ، مخيرا فلما أذن لهم ، أعلمه الله ، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وانه مع ذلك لا حرج عليه فى الاذن لهم ، انها آية مدح للرسول غاية فى الرقة ... ومن غير شك قد صدر الاذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول ، صلوات الله عليه ، يصدر فى احكامه ، وما كان فى ذلك الا متبعا ، لقوله تعالى : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه الممارون .

ث

ومع ذلك فاننا نريد أن نزيد الأمر وضوحا فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى الى » لأهميته الكبرى ، فنقص القصة التاليـــة ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها بن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، فى شرحه لقصيدة ولى الله : « أبو مدين » رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد ـ رضى الله عنه ، وقال :

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟

فأشير الى شيخ كبير فى السن كان حاضرا هناك .

فقال له : هل سمعت شيئا من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم : ســـمعته قال : « من زارنى لا تحرقه النار » .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول ، أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى ،

صلى الله عليه وسلم ، أنما رأى « يتيم أبى طالب » ولو رآه ، صلى الله عليه وسلم ، لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أى انه لم يره بالتعظيم والاكرام والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهـذا المعنى لم تحـرقه النار ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه « يتيم أبى طالب » : فلم تنفعه تلك الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحـديث عن أبى يزيد ، رضى الله عنه ، وانما نريد ، أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وانما رأى « يتيم أبى طالب » .

هذه النظرة ، لأبى جهـل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها .

والمؤمنون ، بحمد الله ، لا يقعون فى هذا الاثم متعمدين ، وانما يتسلل هـذا الاثم الى بعض النفوس فى صـورة ، لا شعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول ، صلوات الله عليه ، وكأنه لا شىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب : أنه ، حينما يتحـدثون عن البشرية ، ويركزون عليها ، يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين ، وفاتهم ، أن هذه النظرة لأبى جهل ، انما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول الا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر ــ فى هذه النزعة ــ وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين انما هو بذلك : يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ، ولا متطورين ، وانما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !!!

ليس هناك اذن اجتهاد وخطأ وصــواب ، وانما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله ، مبينا طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، ورأفته الواضحة ؛ ويبين فى الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلا لها ، لفساد فطرهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة : أن الانسان يميل الى التركيز على : « بشر » أو على « يوحى الى » حسب قوة شعوره الدينى وضعفه ، فالذى لا ايمان له لا يرى الا البشرية ، ومن ضعف ايمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الايمـــان ، ويزداد التـــركيز على : « يوحى الى » . كلما ازداد الايمان ، حتى يصل الانسان الى ألا يرى أو لا يكاد يرى الا : « يوحى الى » . . . .

صلوات الله وسلامه عليك ، يا سيدى يا رسول الله .

وهناك اذن طرفان يمثلان فريقين من الناس طرف : « بشرا » أو ، « قل : انما أنا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى الى » أو « رسولا » ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا .

وان مقياس الايمان قوة وضعفا ، مقياس درجة الايمان الذى لا يخطىء ، انما هو ما وقر فى القلب أو غلب عليه ، من « البشرية » أو من : « يوحى الى » ، انهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان ....

دع ما ادعته النصارى فى نبيهمو
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

٦

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى ، أو لا يكاد يرى ، الا : « يوحى الىّ » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟ .

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن : « يتيم أبى طالب » لتقر بنا من : « الأسوة » ؟ كيف ينبغى ، أن تكون نظرة المؤمن ، لرسول الله ، صلوات الله عليه ؟ !

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله ، صلوات الله عليه ، يلزم لها أن يصل الانسان الى مستواه ، صلوات الله عليه ، أو الى ما يقرب من مستواه ، وذلك لا يتأتى .

بيد أنه اذا استحال ذلك فانه من الميســـور أن نورد صورتين : احداهما : جاهلية والأخرى : اسلامية والصورتان لسيدنا عمر ، رضى الله عنه :

أما الصورة الأولى : فانها : « يتيم أبى طالب » : كان سيدنا عمر ، يراها قبل أن يهديه الله للاســـلام . وأراد سيدنا عمر ، أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله ، صلوات الله عليه : « اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين اليك : بعمرو بن هشـــام ، أو بعمـــر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا ، عمر ، فهداه الله ، للاسلام ، ولازم الرسول ، صلوات الله عليه ، فناله من بركاته ، ومن خيره ما هيأه لأن يكون الخليفة الثانى ، للأمة الاسلامية أجمع ، وأن يعز الله الاسلام به فى حياة الرســـول ، صلوات الله عليه ، وبعد وفاته .

ان سيدنا عمر ، هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذى كان اذا سلك طريقا سلك الشيطان طريقا آخر : خشية منه ورهبة ، والذى نزل القـــرآن أحيانا مصدقا ، لما رآه ، ان سيدنا عمر ، صاحب : « يا سارية الجبل » يرسم لنا صورة اسلامية لســـيده ، وحبيبه ، وصديقه ، ونبيه ، ورسوله ، صلوات الله عليه .

ولكن هذه الصورة : هى صـــورة سيدنا عمر ، أنها تتناسب مع مستوى سيدنا عمر ، وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا ، أبو بكر ، رضوان الله ، وماذا كان يمكن ان يقول سيدنا على ، رضى الله عنه ؟ وماذا كان يمكن ان يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟ !

ان الله ، سبحانه وتعالى ، يقول عنه صلوات الله عليه :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

وما كانت كلمة السيدة عائشة ، رضوان الله عليهما : « كان خلقه القرآن » الا تفسيرا لما اشارت اليه الآية القرآنية الكريمة ، ايمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ ، أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ، استغفر الله واتوب اليه .

ولنعد الى الصـــورة التى حاول رسمها صاحب : « يا سارية الجبل » ، لنعد اليها لنثبتها شارحين لبعض حوادثها ، موضحين لبعض انبائها ، وسنجعل الايضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سُمع سيدنا عمر ، يبكى ويقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرا ، لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتها : « يروى البخـــارى ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبا وكتب السيرة « حادث

حنين الجذع » بعدة روايات وننقل هنا أحـــدى روأيات البخارى :

عن ابن عمـــر ، رضى الله عنهما قال : « كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يخطب الى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول اليه ، فحن الجذع ، فأتاه ، فمسح يده عليه » .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

« من يطع الرسول ، فقد أطاع الله » .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ، وابراهيم » بأبى أنت وأمى يا رســـول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد اطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون .

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله ، وأطعنا الرسولا » .

بأبى أنت وأمى يا رســـول الله ، لئن كان موسى بن عمران ، أعطاه الله ، حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا (فليس ذلك) بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

(ان نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله عليه ، لم يحدث مرة واحدة وانما حـــدث عدة مرات ، رواه

البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، فى ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا احدى روايات الامام البخارى :

عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى ، صلى الله عليه وسلم ، بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس (فأسرعوا وتكاثروا) نحوه فقال : مالكم » ؟

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

قلت : كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشر مائة) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لئن كان سليمان بن داود ، أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك : (سنتحدث ، فى فصل خاص ، عن الاسراء والمعراج) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لئن كان عيسى بن مريم ، أعطاه الله ، احياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك ، وهى مشوية ، فقالت لك الذراع :

« لا تأكلنى فانى مسمومة » .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

« أخبرنا سعيد بن محمــد الثقفى ، عن محمـد بن عمرو ، عن أبى سلمة قال : « كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهـدية ، فأهدت اليه يهودية شاة مصلية ، فأكل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، منها هو وأصحابه ، فقالت : انى مسمومة ، فقال ، لأصحابه : « ارفعــوا ايديكم ، فانهــا قد أخبرت أنها مسمومة » قال : فرفعــوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل اليها الرســول ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ما حملك على ما صنعت » فقالت أردت أن أعلم : ان كنت نبيا لم يضرك ، وان كنت ملكا ، أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت » اهـ .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح ، على قومه فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » .

ولو دعوت علينا بمثلها ، لهلكنا كلنا : فلقد وطىء ظهرك — تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه تبرزان — وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول الا خيرا ، فقلت : «اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون»

(لقد دمى وجهه ، صلوات الله عليه ، وكسرت رباعيته فى (غزوة أحد) . روى ذلك البخارى ومسلم . أماحديث:

«اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون» فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة) بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك فى قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا ، فى كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس الا كفء لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح الا كفء لك ما نكحت الينا .

ولو لم تواكل الا كفء لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا ونكحت الينا وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعا منك ، صلى الله عليك وسلم !!!

هذه صورة :

ومن الطريف : أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول ، صلوات الله عليه ، ولكنه رجل ، واسع الأفق ، رحب الخيال ، دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن .

هذا الرجل هو : « هرقل » .

أتاه كتاب رسول الله ، صلوات الله عليه ، يدعوه الى الاسلام ، فلم يهمل الكتاب ، ولم يمزقه ، وانما قرأه فى عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكوّن صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل عما اذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول ، فقيل له : ان بالمدينة تجارا من مكة ،

رفون محمدا ، باعتباره من مواطنيهم ، فأمر باحضارهم ، كان منهم أبو سفيان :

وسأل هرقل ، عن أقربهم نسبا الى الرسول ، فكان با سفيان ، فقربه منه ، وأدناه ، وقال لهم : انى سائله ن أمور فان كَذَبنى فكذبوه :

يقول : أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا لى كذبا ، لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى ، لأنها واضحة من لنتائج التى انتهى اليها هرقل :

ان هرقل ، بعد أن انتهى من الأسئلة : بدأ ــ عن طريق لترجمان ــ يقول ، لأبى سفيان ، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : ــ سألتك عن نسبه :

فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل : تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال ، هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا .

قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟

فذكرت : أن لا .

فقد أعرف ، أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : اتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الايمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الرسل : لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يامركم : ان تعبدوا الله ولا تشركوا

ـيئًا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصــــلاة ،
الصدق ، والعفاف ...

فان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم ، أنه خارج ، لم اكن أظن أنه منكم ،
لو أني أعلم ، أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت
عنده لغسلت عن قدمه .

هذه الصورة التي كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن ان يكوّنها
ويكوّن مثيلات لها كل انسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ،
كل انسان يصدق الله والحق : لا بد أن ينتهي بما انتهى اليه
هرقل ، من قوله : « لو كنت عنده لغسلت عن قدمه » ؛
انما يغسل عن قدمه ، من أجل : « يوحى الي » . اذ أن
من أصطفاه الله ، لرسالته ، جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد أن هذه النهاية التي انتهى اليها هرقل : انما هي
الشعار الدائم الذي لا ينتهي بانتقال الرســــول الى الملأ
الأعلى ، فالرسول حي بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه ،
والغسل عن قدمه الآن ، أو بتعبير آخر : احترامه : انما هو
اتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرا يتناسب
مع أصطفاء الله له ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد ركز هرقل ، نوعا ما ، على الصدق والاخلاص .
والواقع ؛ أن صورة الصدق والاخلاص ، كان يراهما كل من
عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تعمه عصبية ،
أو حسد او هوى .

على أن صــــورة الصدق والاخلاص : كانت سمة
السمات التى اتصف بها الرسول ، قبل بعثته ، وبعد بعثة
صلوات الله عليه ، لقد لازمته طيلة حياته ، لقد كان مح
الخبر يلقيه ، صلوات الله عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على
واقع لا محالة ، فهذا امية بن خلف ــ عدو لدود ــ يتلا
مع سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطوا
بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ ــ فى حدة المناقشة ـ
لقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقــول
انه قاتلك ، ويضطرب قلب أمية بن خلف ، ويسأل فى له
وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقا ؟ فلما أكد له سعد
معاذ الخبر ، اسقط فى يده ، وقال : لئن كان قال ذلك
لقد صدق . وقتل امية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بيّن ، حي
اعلن رسول الله ، صلوات الله عليه ، الى قريش نبوته
فقــال لهم :

« ارأيتم لو اخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تر
أن تغير عليكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » .

لقد كانت اجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقي
التى لمسوها فيه ، لقد قالوا :

« نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذ
قط » ...

وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مزوّى

لم يؤد اليها منطق محكم ، صـــورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وانما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

انها الصورة التى كونتها عنه ، صـــلوات الله عليه ، ام معبد الخزاعية . وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه وانما تتصل ـ على الأخص ـ بالجانب الظاهر ، واردنا ان نثبتها هنا ، لنثبت بها : « هيئة » وظاهرا بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والاجلال ، أن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف ، انها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله عليه ، من مكة الى المدينة ، يرافقه أبو بكر ، رضى الله عنـــه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم : عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة ام معبد الخزاعية ، وكانت امرأة ، قوية الأخلاق ، عفيفـــة ، تقابل الرجال ، فتتحـــدث اليهم ، وتستضيفهم . وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقالت لهم :

والله لو كان عنـــدنا شىء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى شاة فى ركن الخيمة ، فقـــال :

« ما هذه الشاة ، يا أم معبد ؟ » قالت :

هذه شاة خلّفها التعب عن الغنم .

فقال ، صلوات الله عليه : « هل بها من لبن ؟ » فقالت : هى أجهد من ذلك .

قال : « أتأذنين أن أحلبها ؟ »

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ان رأيت بها حلبا .

فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

« اللهم بارك لها فى شاتها » .

فامتلأ ضرع الشاة ، ودرّ لبنها ، فدعا باناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ، صلى الله عليه وسلم ، آخرهم ، وقال :

« ساقى القوم آخرهم » .

فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزا عجافا هزلى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

« من أين لكم هذا ، ولا حلوبة فى البيت » ؟

قالت : لا والله ، الا انه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه ، كيت وكيت .

قال : والله انى ، لأراه صاحب قريش الذى يطلب ، صفيه لى يا أم معبد ؟

قالت : رايت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلّج (مشرق)

الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثَجْلة (ضخامة البطن) ولم تزر به صَعْلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وَطَف (طويل شعر الأجفان) ، وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سَطَح (ارتفـــاع وطول) ، وفي لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر (لا عيّ فيه ولا ثرثرة في كلامه) ، أجهر الناس ، وأجمله من بعيـــد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، اذا قال استمعوا لقوله ، واذا امر تبادروا الى أمره ، محفود (يسرع أصحابه في طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) ، لا عابث ، ولا مفند (غير مخرف في الكلام) .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد ، لتلمست أن أصحبه ، ولأفعلن ان وجدت لذلك سبيلا .

هذه هي الصورة التي حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمرو بن العاص ، فانه يقـول ، في صراحة وصدق ـ عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضي فخنقته

العبرات ، وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة مؤثرة ـ :
« ما كان أحد أحب الى من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق ان أملأ عينى منه اجلالا له ، ولو سئلت ان أصفه ما أطقت : لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

٧

والآن نريد ان نتساءل : ما هى الصورة التى نريد ان نرسمها فى هذا الكتاب ؟ :

ونريد ان نقول : ان هذه الصورة التى نحاول رسمها ، ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة ، انها صورة نحاول جاهدين ، أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول : أننا ، لا نرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة ، لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها ، ونحن هنا انما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ، معترفين بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون ، على ما فيها من عجز وقصور ، ممثلة لبعض ما نكنه ، لسيد ولد آدم : من حب وايمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التى نحاول رسمها ، فانه لا يعزب قط عن بالنا قول امامنا البوصيرى ، رضى الله عنه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، هذه الأبيات ، التى تعبر عن الحقيقة تعبيرا صادقا :

أعيا الورى فهم معناه فليس يُرى
للقرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد
صغيرة وتكل الطرف من أمم

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر
وانه خير خلق الله كلهم

النسبُ الشريف

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ر لك الأمهـــات والآباء
ابان مولده عن طيب عنصره ياطيب مبتدأ منه ومختتم

يقول ، صلوات الله عليه ، فيما رواه الامام مسلم :

« ان الله ، اصطفى من ولد ابراهيم ، اسماعيـــل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وهو ، صلوات الله عليه : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصى ...

ويصل نسبه الى سيدنا ابراهيم ، عليه السلام :

ولا نريد هنا ، أن نتحدث عن النســب الشريف من ابراهيم ، عليه السلام ، الى محمد صلوات الله عليه ، وانما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين من قصى :

قصى

كان قصى عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة فى عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة . ورأى قصى : ان قريشـــا : انما هى الوارث الشرعى لاسماعيـل

فهى فرعته(١) ، وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم الى اخـــراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصى فى تدبير الأمر واحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالا شديدا ، وكانت الغلبة فى النهاية لقصى .

ولما فرغ من نفى خزاعة وبنى بكر عن مكة ، تجمعت اليه قريش ـ حسبما يروى ابن سعد فى « طبقاته الكبرى » ـ فسميت يومئذ : قريشا(٢) لحال تجمعها ، والتقرش هو : التجمع .

ومما يروى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : أنه قال :

« كان قصى بن كلاب : أول ولد كعب بن لؤى ، ، أصاب ملكا ، أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها ، فابتنى : دار الندوة : وجعل بابها الى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح ، أو حرب ، أو مشورة ، فيما ينوبهم ، حتى ان كانت الجارية تبلغ أن تدرّع ، فما يُشقّ درعها الا فيها ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، ولا يعقدون ، لواء حرب لهم ، ولا فى قوم غيرهم ، الا فى دار الندوة : يعقده لهم قصى . ولا يُعذرُ (٣)لهم غلام الا فى دار

---

(١) سلالاته .

(٢) قيل فى سبب التسمية آراء غير ذلك .

(٣) لا يختن .

الندوة ، ولا تخرج عير (١) من قريش ، فيرحلون الا منها ، ولا يقدمون الا نزلوا فيها ، تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة بفضله ، ويتبعون أمره كالدّين المتبع : لا يعمل بغيره في حياته ، وبعد موته ، وكانت اليه الحجابة (٢) والسقاية (٣) ، والرفادة (٤) ، واللواء (٥) ، والندوة (٦) ، وحكم مكة كله ، وكان يعشر (٧) من دخل مكة سوى أهلها .

قال : وانما سميت : دار الندوة ، لأن قريشا ، كانوا ينتدون فيها : أى يجتمعون للخير والشر ، والنّدِى : مجمع القوم : اذا اجتمعوا (٨) .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحى ، وضاقت مكة ، بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر فى الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر فى الحرم ، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : انما تقطعونه ، لمنازلكم ولخططكم ؛ بهلة (٩) الله على من أراد فسادا ، وقطع هو بيده ، وأعوانه ، فقطعت — حينئذ — قريش ، وسمته : « مجمعا » لما جمع من أمرها ، وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها — : دار الندوة ،

---

(١) قافلة . (٢) سدانة البيت . (٣) سقيا الحجيج .
(٤) اطعام الحجيج . (٥) للحرب . (٦) للمشورة .
(٧) يأخذ منهم العشر . (٨) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ .
(٩) أى لعنته .

والحجابة ، والسقاية ، واللواء ، والرفادة ـ الى اكبر أبنائه سنا ، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف .

عبد مناف

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف ـ : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، : اقتصر عليه ، حين أنزل الله تعالى ، عليه :

« وأنذر عشيرتك الأقربين » .

فانه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع اليه بنو عبد مناف ، تلبية لندائه ، قال لهم :

« ان الله ، قد امرنى ، ان انذر عشيرتى الأقربين ، وانتم الأقربون من قريش ، وانى لا املك لكم من الله ، حظا ، ولا من الآخرة نصيبا ، الا ، أن تقولوا :

« لا اله الا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر ، وست نسوة ، كان من بينهم ، هاشم بن عبد مناف ، واسمه : عمرو ، وهو الذى عقد الحلف ، لقريش من هرقل ، من أجل ان تختلف الى الشام ، آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب : ايلاف قريش ، وايلاف قريش هَو دأبَها وعادتها : لقد كان هو أول من سَنّ الرحلتين ، لقريش ، ترحل : احداهما فى الشـــتاء الى اليمن ، والى الحبشة : الى النجاشي فيكرمه ويهديه الهدايا . ورحلة الصيف الى الشام والى غزة ، وربما بلغ : أنقرة ، فيدخل على قيصر ، فيكرمه ، ويهديه الهدايا (١) .

ثم أصابت قريشا ، سنوات جدب عجاف ، ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم الى الشـــام ، فأمر بخبز كثير ، فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الابل ، حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز : يعنى : كسره ، وثَرَده ، ونحـــر تلك الابل ، ثم أمر الطهاة ، فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة ، فأشبعهم وكان ذلك أول الحيا بعد السنة التى أصابتهم ، فسمى بذلك : هاشما .

وكان هاشم : رجلا ، شريفا ، طموحا ، ذكيا ، ولم يكن يرضيه قط ، أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة : من الحجابة ، واللواء ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال ، وعَبّئت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولّى هاشم بن عبدمناف

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد .

السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض الثراء ، وكان اذا حضر الحج قام فى قريش ، فقال :

« يا معشر قريش ، انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وانه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله ، يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله ، بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزَورَه .

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم(١) ، فتجعل فى موضع زمزم ، ثم يستقى فيها الماء من البئار(٢) التى بمكة ، فيشربه الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى ، والماء يومئذ قليل فى حياض الأدم الى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس لبلادهم .

عبد المطلب

وولد هاشم بن عبد مناف : أربعة نفر ، كان منهم شيبة الحمد ، وهو : عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم ، الرفادة ، والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده : يطعم الحاج

---

(١) حياض الادم : هى حياض من جلد . (٢) الآبار .

ويسقيه فى حياض من أدم ، الى أن حفر زمزم ، فأصبح ، يسقى الحاج من زمزم ، ويحمل الماء من زمزم الى عرفة ، فيسقيهم به .

وكانت زمزم سُقيا من الله .

لقد أتى عبد المطلب فى المنام مرات ، فأمِر بحفرها ، ووُصِف له موضعها ، فقيل له :

« احفر طيبة » .

فقال : وما طيبة ؟

فلما كان الغد ، أتاه ، فقال : احفر بَرَّة .

قال : وما برة ؟

فلما كان الغد أتاه ، وهو نائم فى مضجعه ذلك ، فقال : احفر المضنونة .

قال : وما المضنونة ؟

ابن لى ما تقول .

فلما كان الغد أتاه ، فقال : احفر زمزم .

قال : وما زمزم ؟

قال : لا تنزح ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب ، بمعوله ومسحاته ، وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل الى الماء ، فكانت : زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكام قريش ، وتؤثر عنه سُنن جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح

المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة (١)

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها . وأمده جسما ، وأحلمه حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة ، تفسد الرجال ، لم يره ملك قط الا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات (٢) » .

عبد الله

أما عبد الله ، والد الرسول ، صلوات الله عليه ، فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن ، لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« أما الحرام ، فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « انى لأعرف فيك نسك أبيك » .

واذا نظرنا اذن الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من ناحية والده وأسلافه ومن ناحية والدته وأخواله : فاننا نجدهم ـ خلقا وعراقة أصل ـ من أشرف بيوت مكة

---

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(١) انظر طبقات ابن سعد .

وأكرمها ، وأسماها بشهادة المؤرخين جميعا ، فكان ، صلوات الله عليه ــ كما يقول ابن هشام : ــ

« أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه وأمه » .

مولده

لما حملت به أمه آمنة وهب ، كانت تقول :

« ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلة ، كما تجد النساء ، الا أنى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود . وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى .

فقال : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما ايقّن عندى الحمل ، ثم أمهلنى حتى اذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى ، فقال :

« قولى : أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى ، فقلن لى : تعلقين حديدا فى عضديك ، وفى عنقك ، قالت : ففعلت.

قالت : فلم يكن تترك على الا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعلّقه .

ويقول : أبو جعفر ، محمد بن على : « أمرت آمنة ، وهى حامل برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن تسميه :

« أحمدا » .

ورأت أمه ، حين ولدته ، كأن نورا سطع منها أضاءت له قصور الشام .

وولد صلوات الله عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد ، لما أردته الحكمة الآلهية : من اخراج البشرية من الظلمات الى النور .

كان ميلاده ، تمهيدا لذلك ، بمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، فى هذه الفترة التى سبقت الرسالة ، أحاط رسول الاسلام ، بعنايته ، ورعايته ، ليكون أهلا ، لأن يحمل أعظم رسالة ؛ ولأن يبشر بالدين العام ؛ ولأن يبين للانسانية أجمع المعنى الصحيح ، فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله ، وفيما يتعلق بأمر سلوك ، كل شخص بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع : حاكما كان أو محكوما ، زوجا كان أو أبا أو ابنا ، أو أخا ، أو رئيسا فى العمل ، أو عاملا ، ... الى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته : فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ومنذ ميلاده ، صلوات الله عليه ، بدأت تتزلزل جميع

أسس الضلال والانحراف . وترمز الى ذلك كتب السيرة النبوية ، برموز جميلة فتحدثنا :

« انه فى ليلة ميلاده ، صلى الله عليه وسلم ، غاضت بحيرى ساوى ، وتصدع ايوان كسرى ، وخبت نار الفرس»

اما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة ، فان مصيرها المحتوم ، وتحطيمها المؤكد ، قد تحـــدد موعده بالسنين والأيام .

ان عَمَدَ الشرك هـــذه ، والضلال ، والانحراف ، والظلم ، والاستعباد : بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأصـــبح أمر النور ، والهداية ، والرشاد ، وشيك الظهور والانتشار ...

وسمى المولود : « محمدا » .

اما سبب هـــذه التسمية ، فانه ، حينما جاء جده عبد المطلب ، ليراه قيل له :

« ما سميت ابنك » ؟.

فقال : « محمدا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ، ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : انى لأرجو ان يحمده ، اهل الأرض كلهم ، وذلك ــحسبما يروى السهيلى ، لرؤيا كان قد رآها عبد المطلبــ وقد ذكر حديثها على القيروانى ، فى كتاب : « البستان » .

قال : كان عبد المطلب ، قد رأى في نومه ، كأن سلسلة

من فضة ، خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق ، وطرف فى الغرب ، ثم عادت ، كأنها شجرة على ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . « فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه : محمدا ، وسمته أمه من قبل : أحمد ، فهو أحمد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد تحدث الرسول ، صلوات الله عليه ، فيما بعد عن أسمائه ، فقال فيما رواه الامام أحمد :

« ان لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحى به الكفر ، وأنا العاقب » .

وقال فيما رواه الامام أحمد أيضا :

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبى الرحمة ، ونبى التوبة ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الملاحم » .

وكان من عادة العرب ، أن يرضعوا ابناءهم ، خارج مكة ، فيرضعوهم فى الصحراء المنطلقة ، مكانا وجوا ، ليشبوا فى صحة تامة ، جسما وعقلا ، ومن أمثالهم : « العقل السليم فى الجسم السليم » .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء فى مكة ، وهنا

نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة ، وعما صادفت فيها ذهابا وايابا ، وعما رأته من بركات رسـول الله ، صلوات الله عليه ، لقد كانت تقول :

« انها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وهى فى سنة شهباء لم تبق لها شيئا » .

قالت : فخرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، وما فى ثدى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمّت (١) بالركب حتى شق عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله : محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها : « انه يتيم » وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من ابى الصبى ، فكنا نقول : يتيم : وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت الا أخذت رضيعا غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى ، لأكره

---

(١) جاءت بما تذم عليه .

أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله ، لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى ، أقبل عليه ثدياى بما شـــاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى الى شارفنا تلك ، فاذا بها حافل ، فحلب منها ، وشرب ، وشربت معه ، حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصـــبحنا : تعلمين والله يا حليمة : لقد أخذتِ نسمة مباركة :

فقلت : والله ، انى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم حتى ان صواحبى ، ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك : اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

فأقول لهن بلى ، والله ، انها : لهى هى .

فيقلن : والله ان لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله ، أجدب منها ، فكانت تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شبابا ، لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ولكنه ، صلوات الله عليه ، لم يمكث عندها عامين فقط : ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به الى مكة ، لتراه أمه وليراه جده ، ثم عادت به أشد ما تكون حرصا عليه وعلى العودة به .

أخذت حليمة السعدية ، رسول المستقبل الى بادية بنى سعد مرة أخرى وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا : قد ملأ رحلتها من مكة الى البادية ، بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

ان الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الانسانية منذ أن وجدت الانسانية : تؤيد أن هناك اشـــعاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطا . فلا غرابة اذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابهما ،

وأن تسـير الرحلة فى رخاء وأن يكون محمـد فى براءته وطهارته ، وفى طفولته الباسمة ، ونضرته المتألقة : هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد بيت حليمة : بهجة وسرورا ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه ، ويبارك الله فى كل شىء فيه ، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ، ويزيد حنانها عليه ، فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان ، وينغرس كل ذلك فى نفسه ، ويمتلىء قلبه الناشىء ببذور من أسمى العواطف والشيم .

ويتحقق منذ طفولته ـ بل والى أن تنتهى به الحياة ـ ما روى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، من أنه لما توفى عبد الله ، قالت الملائكة :

« الهنا وسيدنا ، بقى نبيك يتيما » .

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير » .

نبيّ التوبة

صلى الله عليـــه وسلم

عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال ــ فيما رواه الامام احمد : ان رسول الله ، صـــلى الله عليه وسلم ، قال عن نفسه :

« انه نبى التوبة » .

وللتوبة عند الرسول : صـــلوات الله عليه : وفى الجو الاسلامى على وجه العموم ، شأن كبير ؛ ذلك أن التوبة انما هى : تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الاخلاص .

وأهمية الاخلاص اذا نظرنا الى الفــرد ، أو نظرنا الى المجتمع : لا تخفى على أحد .

واذا نظرنا الى حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، من زاوية التوبة ، والاخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح : فان أول مايفجؤنا من ذلك : انما هو هــذا الحادث الذى ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع ، لرسول الله ، صلوات الله عليه ، منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان ، صلوات الله عليه ، اذ ذاك فى بادية بني سعد

عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان ـ على ما يروى الامام مسلم ـ أتاه جبريل ، فأخذه ، فضجعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة ، فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون الى أمه ـ يعنى مرضعته : ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ، فقد روى الامام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة ، رضى الله عنه ، كان جريئا على أن يسأل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أشياء ، لا يسأله عنها غيره ، فقال :

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة » ؟ فاستوى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جالسا وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » .

انى لفى صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، واذا بكلام ، فوق رأسى ، واذا رجل يقول ، لرجل : « أهو هو » ؟

قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه ، لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا

الى يمشيان حتى اخــذ كل واحد منهما بعضدى لا اجد لاحدهما مسا .

فقال أحــدهما لصاحبه اضجعه ، فأضـــجعانى بلا (١)ولا هصر (٢)وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره » .

فهوى أحدهما الى صدرى ففلقه ، فيما ارى بدون دم ولا وجع . فقال له :

« أخرج الغل ، والحسد ، فأخرج شيئا ، كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها فقال له :

ادخل الرافة والرحمة ، فاذا مثل الذى اخرج يشبه الفضة ثم هز ابهام رجلى اليمنى ، فقال اغدُ واسلَم .

فرجعت بها أغدو رقّة على الصغير ، ورحمة للكبير » .

فلما جاوز ، صلوات الله عليه الخمسين أتاه آت ، بينما كان فى الحطيم أو فى الحجر مضطجعا بين النائم واليقظان ، أتاه ، فشق عن صدره ــ حسبما يروى البخارى ومسلم ــ واستخرج قلبه :

« ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا ، فغسل قلبى ثم حشى ثم أُعيد » .

---

(١) القصر : الاجبار .

(٢) الهصر : ثنى العمود من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى .

وتكرر المعراج ، فتكرر شق الصدر : فعن أبى بن كعب ـ فيما رواه الامام أحمد ، والامام مسلم ـ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ، ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه .

ولا يعنينا هنا لا فى قليـــل ولا فى كثير ، أن نجارى الماديين فى جدلهم ، فيما يتعلق بشق الصدر : فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان .

والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه الى المماحكات التى تشعر بضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت فى كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة ، هذه الحادثة التى توجه النظر الى عناية الله سبحانه ، وتعالى ، برسوله ، صلى الله عليه وسلم ، منذ طفولته المبكرة وان من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

ان الله ، سبحانه ، وتعالى ـ وقد شاءت ارادته ، منذ الأزل ، أن يكون محمد : خاتم الأنبياء والمرسلين ـ اراد ، سبحانه ، أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكامل .

والانسان يبدأ السـير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والاخلاص أو ـ بتعبير آخر ـ

بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملئوه سكينة .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملئوه رأفة ورحمة ، فكان صلوات الله عليه : رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، فملئوه ايمانا .

ثم شقوا عنه فملئوه حكمة .

واذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هو المثل الكامل للانسان الكامل ، فان لنا فيه ؛ أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر انما هى : التوبة .

وتوبتنا الى الله اذن توبة نصوحا : انما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطّائين ، بل وعن جو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، هؤلاء الذين يقول الله فيهم : « فعسى الله أن يتوب عليهم » .

ان الله يعبر فى شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا فى جو : (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصى : حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان : سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة

أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطبا الشيطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وبمجرد أن ينزع الانسان سلطان الشيطان فى صورة من العزم المصمم ، وينطوى تحت لواء الله فى صـــورة من اليقين المطمئن ، فان الله سبحانه وتعالى ، يتولاه ويتكفل به .

بل أن رعاية الله ، سبحانه وتعالى : تبدا مع الانسان منذ أن يبدأ فى الاتجاه اليه ، سبحانه وتعالى ، مباشرة ، وبدء الانسان فى الاتجاه الى الله ، انما يكون بالاستغفار فاذا بدأ الانسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له يقول الله تعالى :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

وكلما ازداد الانسان اتجاها الى الله ، واقبالا عليه ، وتقربا منه ، وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

« من تقرب الىّ شبراً تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

ان حياة النفوس والعمل الصالح : أهم عنصر لسعادة الانسان فى حياته الدنيا وسعادته فى الحياة الآخرة . والله ، سبحانه وتعـــالى ، يبين ذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

« ولو أن أهــل القرى آمنوا واتقوا : لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله ، فهو حسبه » .

التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايته ، واللبنة الأولى فى أساس كل ذلك : انما هى : التوبة ، أو هى : شق الصدر ، واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله ، بابها على مصراعيــه انه ، سبحانه وتعالى ــ فيما رواه الامام مسلم ــ « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبســـط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ويقول سبحانه :

قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا : انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له » .

وتوبة العوام انما هى من الذنوب والآثام أما الخواص ، فانهم لا يتوبون من الآثام والمعاصى ، فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيــه ، ومع ذلك فانهم يتوبون الى الله ويستغفرونه مصبحين ، ويستغفرونه ، سبحانه ، ويتوبون اليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون

إليه تعالى فى كل وقت وحين : خضوعا له وخشية منه ، وتقربا اليه ، وخوفا من الكبر الخفى ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التى قد لا يشعر بها الانسان .

لقد كان رسول الله ، صـــلوات الله عليه ، فى ترقيه الدائم ، وفى انواره التى تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر الله ويتوب اليه استغفار عبادة ، وتوبة انابة وقربى . يقول ، صلوات الله عليه ـ فيما رواه الامام البخارى ـ :

« والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . ويقول ، صلوات الله عليه ـ فيما رواه الامام مسلم ـ :

« يا أيها الناس توبوا الى الله واستغفروه ، فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة » .

بيد أن ما نريد أن نؤكده ، لطلاب المعرفة الصحيحة ـ عن عالم الغيب ـ ونؤكده لطلاب الايمان المطمئن : هو أن وسيلة ذلك : انما هى : التوبة النصوح ، أنها تستخرج حظ الشيطان ، ثم تأتى بالسكينة . والتوبة النصوح : سبب مباشر ـ بتوفيق الله ـ لملء القلب ايمانا ، بعـد أن امتلأ رأفة ورحمة ثم انها السبيل لتنزل الحكمة ـ وهى المعرفة اللدنية ـ أرسالا أرســالا ، فيفيض بها القلب هــداية وارشادا : « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وأن من التزم العبودية ـ واللبنة الأولى فيها انما هى

التوبةـ : فان الله سبحانه ، يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علما .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ، صلوات الله عليه ، في سن مبكرة ، فكان ، صلوات الله عليه ـ كما تقول السيدة آمنة :

« والله ، ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة انه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة ـ حينما كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شابا ، فتيا قويا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه وأراد الله ، ان يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخاري عنه ، صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » .

أما هاتان المرتان : فان سيدنا عليا ، رضي الله عنه : يتحدث عنهما ـ على ما يروى ابن كثير ـ فيقول : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما . قلت

ليلة لبعض فتيان مكة ــ ونحن فى رعاء غنم أهلها ــ فقلت لصاحبى :

« ألا تبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان » ؟

فقال : بلى

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست انظر . وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبى ، فقال : ماذا فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رايت .

ثم قلت له ليلة اخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ، ففعل ، فدخلت ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته تلك الليلة ، فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شىء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك ، حتى أكرمنى الله ، عز وجل بنبوته .

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

أما ما كان من أمر عباد الأصنام ، فأن القصة التالية توضح الأمر :

عن ابن عباس ، قال حدثتنى أم أيمن ، قالت : كانت بوانة صنماً تحضره قريش تعظمه تنسك له النسائك . ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوما الى الليل وذلك يوما فى السنة .

وكان أبو طالب ، يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يحضر ذلك العيد مع قومه . فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع الينا مرعوبا فزعا ، فقالت له عماته :

ما دهاك ؟ قال :

« انى أخشى أن يكون بى لَمَم (١) » .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟

قال :

« انى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل ابيض

(١) مس من الجنون .

يصيح بى وراءك (١) يا محمد : لا تمسه » . قالت :
« فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته ، صلوات الله عليه ، شرحا مستفيضا وتوضيحا كاملا ، وتعبيرا تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« انه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : انه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس ، لبناء الكعبة ، فجعلها فى ازاره ، فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره .

ودعى الى مجتمع وليمة فيها ، عرس ولعب ، فأصابه غشى لنوم ، الى ان طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لأنه بعيد عن الشرك ، لم يسجد لصنم قط ، صلوات الله عليه وسلامه .

(١) ارجع وراءك .

الوحى

ما قبل الوحى ـ ان كتب السيرة : لا تحدثنا عن حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، قبل بعثته ، الا بالنزر القليل ـ القليل جدا ـ ويمكن تلخيص ذلك ـ فى صورة مجملة ـ كما يلى :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى الأربع سنوات : عادت به حليمة ، رضى الله عنها ، الى أمه : آمنة بنت وهب ؛ فلما بلغ ست سنين خرجت به الى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن ، تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهرا .

ثم رجعت به الى مكة ؛ فلما كانت بالأبواء توفيت ، ودفنت هناك . ولم ينس الرسول ، صلوات الله عليه ، المكان الذى دفنت فيه أمه ، فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « ان الله قد أذن لى فى زيارة قبر أمى » . ثم أتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقيل له ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن ، على البعيرين اللذين كانا معهما :

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه . وعندما وصل مكة قبضه اليه جده : عبد المطلب ، وضمه ، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ، ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ؛ وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب ، حينما يرى ذلك : « دعوا ابنى ، انه ليؤنس ملكاً » .

ورآه مرة ، عبد المطلب بعيدا عن رعاية أم أيمن ، فقال لها : « يا بركة ، لا تغفلى عن ابنى ؛ فانى وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، وان أهل الكتاب : يزعمون : أن ابنى هذا : نبى هذه الأمة .

ولما توفى عبد المطلب ، قبض أبو طالب ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام الا فى جنبه ، ويخرج ، فيخرج معه ، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط ؛ وكان يخصه بالطعام ، وكان اذا أكل عيال أبى طالب ، جميعا أو فرادى ، لم يشبعوا ، واذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا أراد أن يغذيهم ، قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى ، فيأتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيأكل معهم ، فكان يفضل من طعامهم ، وان لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لمبارك » .

واستمر أبو طالب فى رعاية الرسول ، صلوات الله

عليه ، لم يسلمه قط ، ولم يخذله ، الى أن توفى للنصف من شوال فى السنة العاشرة ، من حين نبىء رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى ، بصـدد أبى طالب : أن العباس قال : يا رسول الله ، أترجو لأبى طالب ؟ فقال ، صلوات الله عليه : « كل الخير أرجو من ربى » .

وفى هذه الفترة التى قبل البعثـة : كان يتحاكم الى الرسول صلى الله عليه وسلم :

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى الجاهلية قبل الاسلام ، ثم اختص فى الاسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم ، فى الخلاف الذى كان بين قـريش ، بشأن وضع الحجر الأسود ؛ فانه ، حينما انتهوا ، فى بناء الكعبة ، الى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ؛ واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، فيكون هو الذى يقضى بينهم، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أول من دخل من باب بنى شيبة ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ؛ ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت ،

من كل ربع من أرباع قريش ، رجل ، فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعه ، وكان فى الربع الثانى : أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع : قيس بن عدى ؛ ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيده فى موضعه ذلك .

وفى سن الخامسة والعشرين : تم زواجه ، صلوات الله عليه ؛ وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منية ، تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد : امرأة حازمة ، شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى ، يومئذ : أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا . وكل قومها : كان حريصا على الزواج منها ، لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتنى دسيسا الى محمد ، بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى أن أتزوج به ؛ قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، الا تجيب ؟ قال : « فمن هى ؟ » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قالت : قلت : علىَّ ، قال : « فأنا أفعل » ، فذهبت ، فأخبرتها ، فأرسلت اليه : أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت الى عمها فحضر ، وتزوجها

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخديجة يومئذ : بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة .

وفى ظل الحياة الزوجية : عاش ، صلوات الله عليه ، عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ، ما كان يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى وهكذا نشأ ، صلى الله عليه وسلم ، طاهر النفس ، كريم الخلق ، مجانبا للمذمومات ، مجانبا للرجس :

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة : فكانت شرحا وتفسيرا ، لما سبق أن تحدثنا عنه : من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه فى طور الشباب : النضج الكامل ، والرجولة الرشيدة :

لقد كان صادقا فى حديثه ، عطوفا على من حوله ، معينا للضعفاء ، يكتسب ثقة كل من يخالطه .

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة ، رضوان الله عليها .

ولكنها ، رضى الله عنها : أحبته لشىء آخر هو : السمو الروحى ، وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفاشية ، والاتجاه الى الخالد من معالى الأمور .

ان عناية الله : رافقته ، ولاحظته ، ووجهته ، فكان خيرا زكيا ، وكان أمة وحده ، وسط هذا الضلال الدينى والأخلاقى ، الذى كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم .

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه : « الأمين » .

لقد كان أمينا على نفســـه : فلم يسلمها الى مهاوى الشرك أو الشهوة ، أو الرجس . وكان أمينا على الناس : فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس فى بعض بالنميمة ، ولم يغتب .

وكان أمينا على الحديث اذا تحدث : فلا كذب ، ولا مغالاة .

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها .

انه : « الأمين » .... أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعه فى الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم ــ كما قدمنا ــ ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام ، لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة ، حينما ، رأوا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وصاحوا : انه : « الأمين » رضينا ، انه محمد !!!

الوحى : ــ ولقد حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، أى : « يتعبد » الليالى ذوات العد ، قبل أن ينزع الى أهـــله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها .

كان ، صلوات الله عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبدا ، حتى قالت العرب : « ان محمداً قد عشق ربه » !!!

ولكن اما آن لهذا الضـــلال الذى يخيم على مكة أن ينقشـع ؟ !

أما آن لهذه الظلمة أن تنجلى ؟!

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟!

أليس هناك أمل فى قبس من نور ، أو اثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو هـــداية من لدن مانح الهدى والرشاد ؟ !!

ويلجأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الله ، يستغيث به ، ويستعيذه ، ويرجوه ، ويلح فى الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضى الأيام ، وهـــو فى كفاح المستميت ، وجهاد المستبسل ، يتجه الى الله فى الصـــباح ، ويتجه اليه فى الظهر ، ويتجه اليه فى الآصـــال ، ويتجه اليه فى مغيب الشمس ، ويتجه اليه حينما تلمع الكواكب .

انه مهاجر الى الله فى كل لحظـــة ، وفى كل نفس من أنفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل همسة من همسات الضمير :

ان حياته كلها لله ، ومع ذلك ، فان الأيام : تمـــر ، والسنين : تمضى ، ولا يزال الظلام مخيما فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شـــارة الضلال وعلم الانحراف !.

ويضاعف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، خضوعه

وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاور الأمل الخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء الى الله ، حتى أصبح ، صلوات الله عليه وسلامه ، فى النهاية ، وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور ... فلما استوت على الجودى .... ولما كاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ... وفى ليلة من الليالى ، بينما كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، معتكفا فى غار حراء ، كعادته كل عام ، وفى شهر رمضان المبارك ... تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الالهى ، والاجتباء الربانى من جانب آخر ، أو ـ بتعبير آخر ـ ذلك الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوة .

لقد جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال :

« اقرأ » .

قال : « ما أنا بقارىء » .

قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال :

« اقرأ » .

قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال :

« اقرأ » .

فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم ارسلنى ، فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم » .

فرجع بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، رضى الله عنها فقال : زملونى ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروغ ، فقال ، لخديجة ، واخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ؛ ان لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . . » .

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة لقد كان ورقة : عربيا أصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغانى ـ : « أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية ، اذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الامام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ، أن يكتب » .

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة فى الأوساط المؤمنة :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويُودى المال والولد

لم تغن عن هرمز ، يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان ، اذ دان الشعوب له
والجن والأنس تجرى بينها البُردُ (١)

ولقد سئل عنه رسول الله ، صلوات الله عليه ، فيما بعد ، فقال :

« قد رأيته فى المنام : كأن عليه ثيابا بيضا ؛ فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة : معروفا بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والاخلاص المخلص ، وقد كان فى فترة بدء الوحى هذه : « شيخا كبيرا قد عمى » أى أنه ، مر بالتجارب الكثيرة فى الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو الا حسن الخاتمة ، والعمل ــ ما استطاع ــ فى سبيل الله .

---

(١) البرد : جمع بريد ، وهو : الرسول .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ، صلوات الله عليه ، اليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن اخيك » .

فلما أخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأى ، قال ورقة ، دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو : الناموس الذى نزّل الله على موسى » .

قال ذلك فى يقين جازم وفى ايمان مؤمن .

اما الأسباب التى دعت ورقة الى هذا القول ، فان منها لا شك : معرفته بحياة الرسول ، صلوات الله عليه : لقد كانت حياة طاهرة عفة : كان ، صلوات الله عليه ، عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ، وكان بعيدا عن أن يكون عبدا للدنيا .

ولقد سمع ورقة ، حديثا يعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البرىء عن عنصر المفاجأة فى الموضوع . ان الحديث لا يتسم بمنطق مروّى ، ولا بتفكير مدبّر ، ولا بمحاولة ، أيا كانت ، للتلبيس والزيف ، انها البراءة المطلقة :

لقد فاجأه الملك ، على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجأه فى خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاءه ، وفاجأه بأمر لم يكن له على بال :

« اقرأ » .

« ما انا بقارىء » .

فغاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد اخذه ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له ، من جديد : « أقرأ » وتكرر ذلك . . .

ورجع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « يرجف فؤاده » .

لقد غمره الروع ، وما ان وصل الى المنزل حتى صاح : « زملونى زملونى » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، ما رأى ، ثم قال :

« لقد خشيت على نفسى » .

ان كل ذلك : برهان واضح على الصدق ، وعلى الاخلاص ، فاذا ما أضيف ذلك الى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فان ثمرة ذلك : التصديق والايمان ، بيد أن النور الذى غمر ورقة ، انما كان اشعاع قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

حينما سمع ورقة ، أول آية من القرآن :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . »

لم يملك أن آمن بأن هذا الذى يتلى ـ انما هو : وحى من السماء ، ان : « اقــــرأ باسم ربك » . تنص على أن القراءة : لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة اقليمية ، ولا باسم غاية مادية

أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وانما هى : باسم الله ، وإذا كانت باسم الله ، فانها تفيد الشخص ، باعتباره فردا ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » وتفيد المجتمع الاسلامى العام ، بل وتفيد الانسانية جمعاء .

واذا ما تجردت القراءة ، لله ، تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله : مصدر الخير والنور ، كانت خيرا ، وكانت نورا فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى ، القراءة وحسب ، وانما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتيه الانسان فى الجانب الايجابى ، وكل ما يدعه الانسان فى الجانب السلبى .

ان هذه الكلمة الأولى : تريد أن تقول : « اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك .... أما اذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضا باسم ربك ، ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسبابا وغايات لله سبحانه وتعالى » .

واذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى فى الجانب الايجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة باسم الله فان الجانب السلبى ـ قد نزلت فيه ـ فيما بعد ـ آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وانه لفسق »

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ، فهو أيضا ، فسق ، لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، اذن ، يجب الامتناع عنه .

أما الاقدام عليه ، فانه فسق يتفاوت فى درجته : من الرجس زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الاسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الاخلاص ، وعلى قمة الاحسان ، وفي خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق ، فما دامت الحيـــاة كلها لله ، فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وارادة غير الله بالأعمال .

اقرأ ... والتربية .

ويقول الله ، تعالى ، فى هذه الآية الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

ولم يقل : اقرأ باسم الله ، ذلك لأنه أراد سبحانه ، منذ البدء : أن يشير الى أن هذا الدستور الالهى النازل من السماء انما هو : تربية ، انه ينزل باسم المربى ، وما دامت هذه التربية الهية المصدر ، فهى اذن محكمة الاحكام كله ، كاملة فى جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى ، فيما بعد عن هذا الدستور :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

وقال الله تعالى :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : تنزيل من حكيم حميد » .

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق ، وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الالهى على التوالى مبينا ، لكل هذه الجوانب مفصلا لها ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، بين فى هذه الآية التى بين ايدينا : أن هذه التربية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد لأنها من الذى خلق ، ذلك أن الذى خلق ، فكون كل خلية فى الجسم ونسقها مع غيرها : لتؤدي ويؤدى المجموع وظائف معينة ، هذا الذى فعل ذلك : محيط علما بالانسان المربى ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق ، وانما هى تربية الخالق نفسه ، الذى أحاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج اليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع ، وعرف الخير والشر ، فتربيته اذن قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهى مر اجل ذلك كله : « تربية خالدة » . لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لان الانسان : هو الانسان أينما وجد واينما كان ، لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب .

اقرأ . . . والاخلاص .

حينما ، سمع ورقة هذه الكلمة الأولى . . . لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول : لشخص تجرد الى الله ،

ويدعوك أن تتجرد أليه سبحانه ، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاها ، ولا زعامة ، ولا ملكا ، انه يريد أن تقرأ الانسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم فى كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له : أيمكن أن تقول له انك كذاب ، فما هو الصدق اذن ؟

أيمكن أن تقول له : انك منافق ، فأين هو الاخلاص ؟

ان هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماعها الى الايمان .

اقرأ . . . والعلم .

ونعود اليها من جديد ، ونرى اشـــارتها الى معان أجملناها فيما سبق ، ونريد أن نفصل فيها بعض التفصيل:

كانت : « اقرأ » . دعوة آمرة الى الثقافة ، الى العلم ، الى الفكر ، الى البحث المستفيض فى السماء وفى الأرض ، وفى الجبال والبحار ، وفى كل ما خلق الله تعالى : من كائنات صغرت أم كبرت ، انها . . . اقرأ باطلاق ، انها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد . . . اللهم الا أن تكون باسم الله .

ولقد اتسم الاسلام ، منذ هذه الكلمة بالطابع العلمى ، كسمة تجاور السمات الأخرى ، التى سنتحدث عنها ، فيما بعد ان شاء الله تعالى :

« وقل رب زدنى علما » . ذلك احدى شعارات المسلم ، ومن استوى يوماه ، فهو مغبون ، ومن لم يكن الى زيادة فهو الى نقصان ، وهـــل يستوى الذين يعلمون والذين

لا يعلمون ، وان مداد العـلماء المتقين : ليوزن ، فى ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

ان الله سبحانه وتعالى ، قد أمتن علينا فى آيات كثيرة من القرآن ، بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر ، وسخر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء .

والامتنان الالهى بهذا معناه : دعوة صريحة للمسلمين ، أن يستجيبوا الى التوجيه الالهى ، فيسـخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الانسانية ، ولكن العلم والمعرفة ، فى الاسـلام : لا يقتصران على الجانب المادى ، لأن النظرة الاسـلامية : أوسع بكثير ، وأعمق من النظرة الحـديثة الأوربية التى تقصر العلم على الجانب المادى .

ان العلم المـادى : علم تسخير الكون ، يحث عليه الاسلام . ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم : تتمثل فى قوله تعالى :

« وأن الى ربك المنتهى » .

وان : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى ،العلم ... عبادة . واذا كنا ــ كمسلمين مدعوين الى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره فى سـبيل الله ، وتذليله رجاء مرضاة الله ، فنحن ، بهذا : متجهون الى الله ، غير ناظرين الى هذا التسخير ، وانما الى المكون ، وبذلك : يكون التسخير نفسه : عبادة : « فمن كانت هجرته الى الله

ورسوله : فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها : فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فالسيطرة على الطبيعة ، فى الوضع الاسلامى الصحيح : هجرة الى الله .

انها قراءة باسمه ، فهى داخلة فى نطاق : « اقرأ باسم ربك » .

واذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد فى أعمـالك وفى أقوالك . والعلم فى الاسلام ، على الوضع الصحيح ، اذن : عبادة ، حتى فى الجانب المادى منه .

ولا يتأتى ، ولن يتأتى ، أن يقف الاسلام عقبة فى سبيل العلم ، وأن يتعارض الاسلام مع العلم الحديث .

ان مشكلة التعاون بين الدين والعلم : انما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الاسلامية ، التى حثت الانسـانية على التعليم ، والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها ، والتى أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا نزال نكتشف كل يوم ، الكثير من أنحائها العميقة ، وما من شك فى أن الحضارة الاسلامية ، هى التى قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة ، منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة .

ان المنهج العلمى الحديث فى أوربا : يرجع الى : (روجر بيكون) فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ : (بريفولت) فى كتابه : « بناء الانسانية » فيقول عن روجر بيكون : انه درس اللغة العربية ؛ والعلوم العربية فى مدرسة : اكسفورد على خلفاء : العرب فى الأندلس ؛ وليس : لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده ـ الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن : روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب . هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى : هى طرف من التحريف الهائل : لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر : « بيكون » : قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا (١) .

ويقول : (بريفولت) أيضا :

لقد كان العلم : أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، تأليف محمد اقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود .

ان العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى اسبانيا : لم تنهض فى عنفوانها ، الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد الى أوربا الحياة ، بل ان مؤثرات اخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الأسلامية ، بعثت باكورة اشعتها الى الحياة الأوربية (١) . اهـ .

واذا كان الاسلام ، هو الذى انشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعى الا يتعارض معه .

على أن مسألة التمارض بين الدين والعلم : انما هى مسألة وهمية ، اذا نظرنا الى حقيقة الأمر .

وذلك أن العلم دائرته : المادة والمحس ، أما الدين ، فدائرته : (ما وراء الطبيعة) ، والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان فى الموضوع ، فكيف يتعارضان .

ان ملاحدة العصر الحاضر : يتوهمون مشاكل ، لا اساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضفى الألف عليها — وهى وهمية — صورة من ظلال الحقائق فيظن بعض لناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه : لا اتحاد بين موضوعيهما .

---

(١) المصدر السابق .

العلم فى الاسلام أوسع دائرة

واذا اقتصرت أوربا على العلم المادى ، فان الاسلام : لا يقف عند ذلك ، وانما يوجه الانسانية الى مصدر آخر للعلم والمعرفة : هو القلب أو هو الروح والبصيرة .

ان الاسلام يوجه الانسانية الى المعرفة الاشراقية ، أو الكشفية ، أو الالهامية ، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمى الحديث الى الاتجاه البصيرى فى قوله :

« ان السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل أولئك : كان عنه مسئولا » .

فالسمع ، والبصر : هما أساس العلم المادى : علم التجربة ، والملاحظة . أما القلب : فانه أساس العلم الالهامى .

ان الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم الى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضا الى الاستشراف ، للهداية والنور القلبى عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى ، والاخلاص ، وحب الانسانية ، والمعاونة فى الخير .

واذا كان الاسلام : أوسع نظرة ، فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل فانه يختلف معها اختلافا جذريا حاسما فى مسألة الارادات والنوايا ، وفى أمر الأسباب والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والأهداف .

ان الحضارة الحديثة تقول : العلم ، لا صلة له بالأخلاق ،

و تقول : العلم : لا أخلاقى والعلم فى نظرها : لا شــأن له بالخير والشر .

ولكن الاسلام : يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته : منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى الى الله ، ويجعل منه عبادة لله . انه سبحانه يجعله باسمه الكريم ، ان العلم فى الجو الاسلامى قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الاسلام : حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

تلك حقيقة فى الدين الاسلامى ، سواء نظرنا الى أساسه أو نظرنا الى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله عليه ، فانه :

(رحمــة مهداة) .

الجهر بالدعوة واثبات الرسالة

مكثت الدعوة الاسلامية سرية ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله عليه بالجهر بها . فصعد على الصفا فقــال : يا معشر قريش : فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا . فقالوا مالك يا محمد ؟

قال : أرأيتكم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟

قالوا نعم ، أنت عندنا غير متهم . وما جربنا عليك كذبا قط .

قال : « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة . . — حتى عدد الأفخاذ من قريش — ان الله امرنى أن انذر عشيرتى الاقربين . وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة . ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا : « لا اله الا الله » .

واذا كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم فانه كان مطمئنا واثقا من أن حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحا .

لقد كانت حياته . البراءة الكاملة . والطهر التام وهذا ما دعاه الى ان يتحدى ، فى صراحة وان يعلن فى وضوح ، أن حياته تثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة — الصدق والاخلاص — فى كل من يحيطون به ، لما كان فى حاجة الى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفى الأخبار بانه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الاخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق والاخلاص لأنفسهم وللآخرين . اى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن ابو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره . آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة — صفة

الأمانة ـ أبو سفيان فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول : سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا . وكان استنتاج هرقل : أعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .
وسأل هرقل أبا سفيان أيضا عما اذا كان قد أثر عن محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى . فقال له هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر .

أما اثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهى القرآن ، وتحدى العرب به ؛ لقد تحداهم به فى عنف ، وتحداهم متدرجا بهم ؛ اذ طلب اليهم أولا : أن يأتوا بمثله فقال الله تعالى : « قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

« أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت الكافرين » .

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله .

أما عن حياته ، صلوات الله عليه : فان القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة ، لقد تحدث عنها فى صراحة لا لبس فيها ، وتحدث عنها فى اشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلا عن ذلك ، نستنتج من الأخبار الكثيرة التى قصها عنه : جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقى الكريم :

١ ــ لقد تجرد ، صلوات الله عليه من كل مطمح دنيوى :

« قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله ، وهو على كل شىء شهيد » .

٢ ــ ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، أربعين عاما ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة : قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ؛ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » .

٣ ــ ويطلب اليهمَ القرآن الكريم : أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا ، الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

« قل : انما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد » .

ويشرح الزمخشرى هذه الآية شرحا لطيفا فيقول ما ملخصه :

انما أعظكم بواحدة ، ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ،

وهى . أن تقوموا لوجه الله خالصا ، اثنين اثنين ، أو واحداً واحداً « ثم تتفكروا» فى أمر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به .

أما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين : لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ؛ حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح ؛ على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده : من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم : أن محمدا، صلى الله عليه وسلم ؛ ما به من جنة ، بل علمتموه : أرجح قريش عقلا ، وأصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير .

واذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

٤ ــ ويصف القرآن الكريم جانبا من جوانب حياته ، ويصف دعوته أيضا فيقول :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ،

اذن لارتاب المبطلون ، بل هو : آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم ؛ وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » .

واذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين ، فاننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقول : انه حتى لو فرضنا أن محمدا ، صلوات الله عليه ، كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا ، أو كان يخطه بيمينه ، لاقتصر الارتياب على المبطلين ، فحسب . ذلك أن معانى الكتاب ومفاهيم الدعوة التى أتى بها ، والقواعد والمبادىء التى يبشر بها ، كل ذلك : آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم ، لا ينفيها ، ولا يجحدها الا الظالمون ، والظالمون فى كل آونة يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

٥ ــ ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

ان الدعوة الاسلامية : آيات بينات فى منطق الحق ، وفى منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا (أكثم بن صيفى) ، أحد حكماء العرب : ينتهج بفطرته السليمة ، هذا النهج من الاستدلال على صدق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بدعوته .

يذكر (الألوسى) انه لما ظهر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ودعا الى الاسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشاً » ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم ــ فيما قال ــ :

« ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، واتانى بخبره ، وكتابه : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو اليه ، وان الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« ان الذى يدعو اليه محمد ، لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول ، صلوات الله عليه ، هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن ابى طالب ، رضوان الله عليه ، حينما سأله النجاشى عن أمر دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم الى الحبشة مهاجرين اليها بسبب ما نالهم من تعذيب اليم ، وارسل القرشيون وفدا الى النجاشى ، فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين الى مكة ، ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص :

«انه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا انت ، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم : من آبائهم ، واعمامهم ، وعشائرهم ؛ لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى أن من الحكمة الا يسلم اليهم المهاجرين ، دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الي أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . .

فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان . . .

وامرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، (وعدد عليه أمور الاسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه ، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ....

ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم بكى النجاشي ، ثم قال :

ان هذا ، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكلة واحدة ، ثم التفت الى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، فقال لهما :

(انطلقا ، فلا ، والله ، لا أسلمهم اليكما) .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه المبادىء الاسلامية « أن هذه المبادىء حقة ، وأنها : آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله عليه : انما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام » .

وبعد ، فان سيرة الرسول ، صلوات الله عليه ، والمبادىء الاسلامية : من أهم الرسائل التي ينبغي أن يتجه اليها المبشرون بالدين الاسلامي لنشر الاسلام .

على أن هذا النهج : من الاستدلال بالدعوة على الصدق ، وجعل النظر في الدعوة : احدى الوسائل التي تسلم — مع غيرها من الملابسات — الى اليقين بصدق الداعي ، هذا النهج

الذى اتخذه هرقل والنجاشى : هو النهج الذى أقره الامام الغزالى ، فانك اذا :

« أكثرت النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى بكونه ، صلى الله عليه وسلم ، على أعلى درجات النبـوة » .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من أعان ظالما : سلطه الله عليـه » .

وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من أصبح وهمومه هم واحد ـ هو التقوى ـ كفاه الله هموم الدنيا والآخرة » .

فاذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه » . بأنه صلوات الله عليه : على أعلى درجات النبوة .

« ان النظر الى الدعوة الاسلامية فى نظر الامام الغزالى هو أحد الوسائل التى تثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال ، العالم الاجتماعى الكبير : ابن خلدون ، وهو يستوعب ـ فى نظرة عامة ـ الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات ، وننقل هنا ما كتبه خاصا بموضوع الاستدلال بالدعوة ـ حينما تكون الدعوة خيرا

محضا : كالدعوة الاسلامية ـ على صدق الرسول فيما يدعو اليه ، يقول :

« ومن علامتهم ايضا :

دعاؤهم الى الدين والعبادة : من الصلاة ، والصدق ، والعفاف ؛ وقد استدلت خديجة على صدقه ، صلى الله عليه وسلم ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى امره الى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفى الصحيح :

أن هرقل ، حين جاءه كتاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يدعوه الى الاسلام احضر من وجد فى بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان : يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل : أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف .... الى آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

« ان يكن ما تقوله حقا : فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدمى هاتين » .

والعفاف الذى أشار اليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء الى الدين ، والعبادة ، دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج الى معجزة فدل ذلك على أن ذلك : من علامات النبوة ...

وشىء آخر له مجاله الكبير فى اثبات الرسالة: ذكرته السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، فى حديث : « بدء الوحى » وهو : أن الله ، سبحانه : حبب الى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ،

الخلاء فكان قبيل الوحى يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التى كان يرى فيها من الضلال الشىء الكثير ...

يتركها ، ليخلو بغار حراء فريدا يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبدا ، خاشعا طالبا رضاه ، أملا فى هدايته . كان يتحنث فى هذا الغار : أى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ؛ قبل أن ينتزع الى أهله ، ويتزود ليعود من جديد الى النسك ، والى العبادة .

لم يكن اذن يطلب مالا أو ثراء أو لذة مادية أو جاها أو مجدا عند الناس انه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحا بينا فى قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو : أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا فى قومه ـ قال يوما ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ؟ .

وذلك : حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه .

فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ؛ فاسمع منى أعرض عليك أمورا .. تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد اسمع » .

قال : « يا ابن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا ؛ حتى لا نقطع أمرا دونك . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : افعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم

يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه . . . »

ثم مضى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرؤه عليه ، فلما سمعها منه عتبة انصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس اليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : « ورائى : أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، اطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وأن يظهر على العرب فملكه وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : « سحرك والله ، يا ابا الوليد بلسانه .

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : انه لو عرض على محمد ، صلى الله عليه وسلم هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .

هذا القول ينقضه : ان عتبة كان مفوضا من زعماء قريش ، وينقضه أيضا الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ـ أخو بنى عبد الدار ـ وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه » .

« فبعثوا اليه ، أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه » وكان عليهم حريصا : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم فقالوا له :

« يا محمد ، انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمع
لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطل
به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد
ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تر
قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا
فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى
نبرئك منه أو نعذر فيك » . فقال لهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« ما بى ما تقولون ، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالك
ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليك
رسولا وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا
فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا ما جئتك
به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر
لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن الما
والثراء ، وعن الدنيا كلها : تؤيده حياته ، صلوات الله عليه
من أولها الى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم
فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة
الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »
(هود : الآية ١٥ — ١٦) .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد

ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » . (الاسراء : الآية ١٨) .

« اعلموا انما الحياة الدنيا : لعب ، ولهو ، وزينـــة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد : كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

وعن جبير بن نفير ، رضى الله عنه ، قال : « دخلت على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان فى كل ما يأتيه وفى كل ما يدعه قرآنا مطبقا ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « اتى اليه ، صلوات الله عليه ، سبعون الف درهم ، فوضـــعها ــ كما يروى هارون بن رباب ــ على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها » .

« وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الاعـــراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه ، فوقف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقال : أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هـــذه

العضاة : ـ شجر عظيم له شوك ـ نعما لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلا ، ولا كذابا ، ولا جبانا » .

ويقول ، صلوات الله عليه ، لأصحابه :

« مالى وللدنيا ؟ » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على الدنيا فأبيتها » .

« ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما يروى عن أنس ، رضى الله عنه : أحب انسان الى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا اذا رأوه لا يقومون له ، لما يعرفون من كراهيته له : « أى القيام له » ويقول ، صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه :

ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ويقول : صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه ، وهم جالسون حوله :

« ان مما أخاف عليكم من بعدى : ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول ، صلوات الله عليه : ما كان يتطلع الى الدنيا فى مختلف جوانبها ، وهو يقرأ قوله تعالى :

« زين للناس حب الشهوات : من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة : من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

عزوفه ، صلى الله عليه وسلم ، عن الدنيا اذن : قضية هى ، من البداهة : بحيث تفجأ ، فى النظرة الأولى ، كل دارس لسيرته ، صلى الله عليه وسلم .

وحينما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات ، والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وانما ترك وراءه مبادىء الحق التى أوحاها الله اليه ، والتى مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله فى سبيل اقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحا لا يهدأ ولا يفتر فى سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادىء ، ويثقون بأنهم مكلفون ـ باعتبارهم من المسلمين ـ بنشرها واذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرا يتضوع رحمة ويشع نورا ، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

انه ، صلى الله عليه وسلم : هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآنى . فكان ، صلى الله عليه وسلم : عازفا عن الدنيا ، ما فى ذلك من شك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتى وفيما يدع مرضيا لله ، تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتما .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى اخلاصه ، صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعنى الا عدم تعلق

القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها في سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم . والمسلم مكافح دائما في سبيل الله ، ومن أجل مرضاته . وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك في الخير واسعاد الانسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الاسلام والعلم ، وعن الاسلام وتسخير المادة ، وقلنا : ان ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله عليه ، عن الدنيا : من أقوى الأدلة على صدقه ، وعلى اخلاصه .

الإسراء والمعراج

وترقى به الى قاب قوسـ
ن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى
دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا
اذا أتته من ربه النعماء

يقول الله ، تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ، ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله : لنريه من آياتنا ؛ انه هو السميع البصير » .

ويقول ، سبحانه :

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده .. أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟! ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة

المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

هذه هى الآيات القرآنية ، عن الاسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية : فانها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا ، يكمل بعضها بعضا .

ونحن هنا ، لا يعنينا ، أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فانه معروف ، عادة للمسلمين ، وانما الذى يعنينا ، أن نذكر على الخصوص ، الجانب الأخلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن اسحاق ــ حسبما يروى ابن هشام ــ لحديث الاسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :

« وكان فى مسراه ، وما ذكر منـــه : بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة ، لأولى الألباب وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شـــاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ومجمل الأمر : ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بينما كان نائما : أتاه جبريل ، فأيقظه ، وخرج معه : فاذا أمامهما دابة بيضاء ، هى : البراق ، وركبها رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم ، وسارت الدابة ، وجبريل ، معه ـ
على حد تعبيره ، صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يفوتنى ولا
أفوته » ، حتى انتهى الى بيت المقدس .

فوجد فيه ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فى نفر من
الأنبياء ، فأمهم ، رسول الله ، صـــلى الله عليه وسلم ،
وصلى بهم ، ثم أتى باناءين : بأحدهما : خمر ، وبالآخر :
لبن ، فأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اناء اللبن ،
وشرب منه ، وترك اناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحـــرمت عليكم
الخمر » .

وتروى كتب السيرة : أن رسول الله ، صلوات الله
عليه : أتاه ليلة الاسراء آت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء
زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ،
فأفرغه فى صدره الشريف ، ثم أطبقه .

ولما انتهى ، صلوات الله عليه ، من بيت المقدس : عرج
به الى السماء ، وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها
جميعها الى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى ،
وهناك ، حيا الرسول ، صلوات الله عليه : ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات » .

وحياه الله ، سبحانه وتعالى :

« السلام عليك : ايها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وقال الرسول ، صلوات الله عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : أشهد الا اله الا الله وحده : لا شريك له ، وأشـــهد أن محمدا عبده ورسوله » .

وفى هذه اللحظات الخالدة ، التى لا يتأتى أن توصف ، فرض الله ، سبحانه وتعالى ، الصلاة على الأمة الاسلامية .

عن ابن عباس ، رضى الله عنه ـ فيما رواه الامام أحمد ـ قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظعت أمرى ، وعرفت : أن الناس مكذّبى » .

قال : فمر عدو الله : أبو جهل ، فجاء حتى جلس اليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزىء :

هل كان من شيء ؟

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : نعم .

قال : ما هو ؟

قال : انه أسرى بى الليلة .

قال : الى اين ؟

قال : الى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟!

قال : نعم .

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث ، اذا دعا قومه اليه !!

قال : ارايت ان دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : نعم .

فانطلق أبو جهل الى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانتفضت اليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا اليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : انى أسرى بى الليلة .

قالوا : الى أين ؟

قالوا : الى بيت المقدس .

قالوا : ثم اصبحت بين ظهرانينا ؟!

قال : نعم .

فاذا بالقوم بين مصفق ؛ وبين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب !! زعم .

قالوا : وهل تستطيع ان تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « فذهبت انعت ، فما زلت انعت حتى التبس على بعض النعت » .

قال : فجىء بالمسجد ، وانا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر اليه .

قال : فقال القوم : أما النعت ، فوالله ، لقد أصاب » .

وعن الحسن : انه فى يوم الحديث عن الاسراء : ارتد

كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس ، الى أبى بكر ، فقالوا له :

هل لك : يا أبا بكر فى صاحبك ؟!

يزعم أنه : قد جاء هذه الليلة : بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة !

فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه .

فقالوا : لا ، ها هو ذاك فى المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله ، لئن كان قاله : لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله ، انه ليخبرنى : أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض ، فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا نبى الله ، أحـــدثت هؤلاء القوم : أنك اتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال : نعم .

قال : يا نبى الله ، فصفه لى فانى قد جئته ؟

قال الحسن : فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فرفع لى حتى نظرت اليه ، فجعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصفه ، لأبى بكر ، ويقول ابو بكر : صدقت : اشهد انك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا ، قال :

صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأبى بكر :

وأنت يا أبا بكر : « الصـــديق » ، فيومئذ سماه : « الصديق » .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب : لهذا النبأ الجليل : يسمعه قوم فلا يصل الا الى الجوانب الظاهـرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى ، أكان ذلك فى اليقظة ؟ أم كان ذلك فى النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟!

وهل كان ليلا ؟ أم كان نهارا ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف وزن الايمان فى النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل الى أعماق قلوبهم ، فيتجهون ، فى صورة طبيعية ، الى مغزاه العميق ، والى ، روحانيته السامية ، ويرون أن هـــذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام .... من هذه التوجيهات .

١ ــ لقد كان ، رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله الى العالم بين الفينة والفينة : لتهدى الى الرشاد ، ولتقود الى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ؛ لتصل بالجديرين منهم الى الكمال المرجو ، عن طريق الارشـــاد الالهى ، وكان

الكتاب الذى انزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو : القرآن : خاتم الكتب ، واكملها ومهيمنا عليها .

ولأن الرسول ، صلوات الله عليه : تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو اذن : أكمل رســـول ، صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا كانت امامته ، صلوات الله عليه ، بالرســـل والأنبياء فى بيت المقدس ، ولأنه ، صلوات الله عليه ، أكمل رسول : كان من اجل ذلك : اقرب المقربين الى الله ، سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل الى ما لم يصل اليه بشر ، بل الى ما لم يصل اليه جبريل ، نفسه ، عليه السلام ؛ لقد وصل ، صلوات الله عليه ، الى « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبــأ المعراج : من وجود الأنبياء والرســـل فى السموات ، ومن أن الرســـول ، صلوات الله عليه ، أخـــذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعـــد الأخرى ، ويتجـــاوز الأنبياء واحدا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ : معنى مكانى ، فانه ايضا ــ بل وبطريق أولى ــ معنى روحى : اى أن الرسول ، صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات : قد بلغ فى معراجه الى درجات تجاوزت ــ فى روحانيتها ــ آدم فى سمائه الاولى ، ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى ، عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ثم تجاوزت يوسف ، عليه السلام فى سمائه الثالثة

... وهكذا حتى تجاوزت ، روحيا ، ابراهيم ، عليه السلام، فى سمائه السابعة . ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله الى سدرة المنتهى ، الى شجرة النهاية ، الى حيث لا يبلغ ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ..

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول ، صلوات الله عليه !!!

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هـذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الالهى ... ينزل بنا منحدرا ، فيجادل فى الاسراء والمعراج : أكان رؤية أم كان يقظة ...

استغفر الله ، واتوب اليه !!!

ان ذلك الجـدل : ان دل على شىء ، فانما يدل على ضعف الايمان فى قلب المجادل .

٢ ـ واذا كانت التوجيهات السابقة : انما كانت ، لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله عليه ، فنزداد بذلك تقديرا ، وحبا ، واتباعا ، فان من هدى الله ، سبحانه وتعالى ، وتوجيهاته فى نبأ الاسراء والمعرج : هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطا محكما ، بين الدين والأخلاق .

والواقع : ان الأخلاق فى جو الاسلام : مرتبطة بالدين ارتباطا ، لاينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، انها جزء من الدين الاسلامى ، لا يتجزأ : مصدرها هو مصدره : الهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق : الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بيّن ؛ فالضمير يُربَى ويكوَّن ، وتربيته ولونه : هما شكله ، ونزعته ، واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

ان الضمير يُصنع كما تصنع المزيفات ، وهو اذن مقياس للأخلاق خاطىء .

وبعض الناس يريد ان يرجع بالأخلاق الى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة : كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة : انما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة اذن ، كأساس للأخلاق : انما هى : أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة الشخصية ، أو الى اللذة ، أو الى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !!!

أما وارد الشرق الاسلامى ، أو بتعبير ادق ، وارد الاسلام الالهى ، فان مقياس الأخلاق فيه : انما هو : المبادىء الدينية ؛ انما هو : آيات القرآن ؛ وانما هو الفضائل التى أوحاها الله ، سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها

القرآن فى أسلوب عربى مبين ، وتحدث عنها نبأ الاسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة .

سار ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى مسراه ، فمر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال ، صلى الله عليه وسلم ، لجبريل ، عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة الى سبعمائة ضعف ، وما انفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت ، كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة :

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم !

فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة ، أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب فى قدر طيب ، ولحم خبيث نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النىء ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من امتك : تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا ، فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل من امتك : يكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض السنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت ، كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء !

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه : ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع !.

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها !

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتا !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى ، واستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقريى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى !!

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشيتى ، فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، اننى أنا الله لا اله الا أنا : لا أخلف الميعاد ، قد فلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد ، فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ،

وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ ــ ومن الثمار التى جنتها الأمة الاسلامية ، والتى كانت من مقاصد اذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الاسلامية الناشئة :

لقد كفر ــ عند سماع النبأ ــ من كفر بعد اسلامه ، وارتد من ارتد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا الا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة .

ان هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ؛ ان هؤلاء المكيين الذين صـــبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، ان هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله ، سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهيئين ؛ لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول :

ان هؤلاء المكيين : يجب أن يصفَّوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية : اذاعة نبأ الاسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ، وعن ايمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، ايمان يصدق الرسول ، صلوات الله عليه ، فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد انبائه .

والمثل الأعلى فى كل ذلك : انما هو سيدنا أبو بكر ، حينما يعلن ، فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجّبكم من ذلك ؟ فوالله ، انه ليخبرنى : أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الايمان المطلق ، بالرسول ، هو الذى جعله ، صلوات الله عليه ، يطلق على أبى بكر ، رضوان الله عليه ، «الصديق» . و « الصديقية » مرتبة من مراتب الايمان ، لا ينالها ، الا من جاهد نفسه جهادا تخطى به ايمان العامة ، وسما فى ايمانه درجة درجة ، الى أن أصبح قائما بالله ، متجها اليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الاسلامية ، بأكملها : مطلوب منها بالنسبة ، الى أخبار رسول الله ، صلوات الله عليه ، أن تكون على غرار الصديق ، رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها الى أخباره ، وتسلم نفسها الى انبائه ، مصدقة تصديقا كاملا : تصديقا يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء

عن كل ما نهى عنه ، تصـــديقا ايجابيا يحقق للأمة الاسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقا ينفى عن وجـودها ، هؤلاء الذين انحـــرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنـــداء أعداء الاسلام : فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرســـول ، صلوات الله عليه : فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين أنهم من المجددين ، وما هم فى الواقع الا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

ان هذه الأقلام التى تشكك فى السنة ، وفى الأحاديث النبوية : ليست الا أقلاما مقلدة للمستشرقين : لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، انما تحمل طابع التقليد . وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الايمان ، ويتنافى مع الصديقية .

٤ ــ أما ثمـــرة الاسراء والمعراج ، وأما هدية الاسراء والمعـــراج ؛ وأما أعظم المنح الالهية فى الاسراء والمعـــراج : أعظمها على الاطلاق ؟

أما النعمة العظمى ، والتجلى الالهى الأكبر فى الاسراء والمعراج فانه : الصلاة .

ولا يتـــأتى لنا ــ عجزا وقصـــــورا ــ أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الاسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى : الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى

الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

انها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل ــ ويجب أن يكون كاملا ــ عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة : لتخلص النفس الى المنعم ، حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !!!

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين انما هى : اقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك : هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة ، يقيمها الانسان ، كما أراد الله ورسوله : من أنجع الوسائل فى القرب من الله ؛ انها : البراق الذى يجتاز به المؤمن ، فى سرعة سريعة ، طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل اليه ، تعالى ، فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الاسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما : هى التى يجب أن نتنبه اليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

ان الله ، سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء الهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ ، سبحانه ، يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته ،

سبحانه ، الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن :
رتب تسقط الأماني حسرى .... دونها ما وراءهن وراء
ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، في عنف عنيف ، هوى بنا في سرعة سريعة دون سابق انذار ، ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوى من الشرك ، يضل فيها هؤلاء الذين هم : كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال : سبحانه ، بعد أن ذكر هذه التجليات الالهية :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » .

لقد أرانا سبحانه . بهذه الكلمات : البشرية المسكينة في ضلالها الديني ، وفي انحرافها الذهني .

ان كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عن : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أسرى به بجسمه وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة ، أو مناماً : انما هو بذلك ينحدر بنفسه ، مختارا ، من التجلي الالهي ، ليهوى بهامنتكسا الى جو اللات والعزى ، وينحدر بهامنتكسا من جو سدرة المنتهى ، الى الجو المادى ، ومن مجالات النور السماوى المتلألىء الى ظلمة الجدل وزيغ المماراة في الدين .

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار مبتعدين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين : « ربنا لا تزغ قلوبنا ، بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب » .

الهجرة

يا لجلال الايمان وثباته وقوته !!

ان التاريخ : نادرا ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة ، لله ولرسوله . هجرة الى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر عما اذا كان مهجره سيستقبله مرحبا ويؤويه فى ألفة أم أنه سيقابله بالجفوة والعداوة . هجرة لم يمهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان ... ان التاريخ : لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالايمان ومن أجل الايمان .

ولكن التاريخ الاسلامى حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فانه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الايمان ، وكثر الحديث عنه ، ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من قبائلهم ، فعذبوهم ، وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألوانا فى سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شفقة عليهم ورحمة :

« تفرقوا فى الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار اليهم : الى الحبشة ، فهاجر اليها فى بادىء الأمر

طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردا .

وأخـذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم الى مكة معتقدا أن الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا الى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشـائرهم ، ولقوا منهم أذى شديدا .

فأذن لهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالخروج الى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا . ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان ، رضى الله عنه ، ، مخاطبا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة الى النجاشى ولست معنـا ؟ !

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون الى الله والىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعـا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكان عـدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النسـاء ثمانى عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبـــد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة ، مزودا بالهدايا الى النجاشى ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين الى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » .

ولم يفلح الوفد وعاد الى مكة بخفى حنين .

ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافيا تاماً مع الانسانية . فقد كتبوا كتابا تعــاهدوا فيه على ألا يناكحوا بنى هاشـــم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم . وكان الكاتب للصحيفة هو : منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان من تقدير الله تعالى : أن شـلّت يده .

وبهذه الصحيفة ، وهــذا العهد ، حصروا بنى هاشم فى شِعب أبى طالب .

وكان ذلك فى أول المحرم ، سنة سبع من نبوته ، صلوات الله عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لايخرجون الا من موسم الى موسم ، حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرا ، وكانت قريش تســـمع أصوات صــــبيانهم يبكون جوعا ومسغبة فلا ترق قلوبهم ولا يتأثرون واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الأمور ، من الشدة والقسوة ، تجرى تحت

سمع الرسول وبصره ، كانت قريش ترسل له ، صلوات الله عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون الى غايتهم سبيلا .

وما ترك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الدعوة قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته . يروى الامام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهليا أسلم يقول :

« رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بصر عينى ، بسوق ذى المجاز ، يقول :

« يا أيها الناس ، قولوا : لا اله الا الله تفلحوا » . ويدخل فجاجها والناس متقصفون[1] عليه . فما رأيت أحداً يقول شيئا . وهو لا يسكت يقول :

« يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته ، مستخفيا ، ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس الى الاسلام ، عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام يتتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، يدعوهم الى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات

---

(١) يجتمعون ويزدحمون .

ربه ، ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى انه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجَم ، واذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة ».

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله عن الدعوة الى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والايذاء : حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه ، وكان الاسراء والمعراج ، وارتد من ارتد ، وثبت من ثبت .
وكان حادث الاسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على ايمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الاسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الاسلام فى هذه الفترة ــ فترة السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة ــ مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على ايمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هـذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى وان كان الرسول ، صلوات الله عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فانها مع ذلك : كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الاسلام ونشر دعوته .

واذا كانت المعسكرات قد تحددت فى مكة ، واذا كانت الفترة من الاسراء الى هجرة الرسول ، صلوات الله عليه :

كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب ، فان الاسلام فى هذه الفترة : لم يكن قد وقف راكدا ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول فى معسكره المكى كل عناصر الخير بمكة ، ولم يبق فيها — فى الطرف المقابل — الا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة ، وانما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة اليها من جديد فى ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الاسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد فى الطبقات :

« أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ما أقام ، يدعو القبائل الى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة ، بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ، ويشتم ، حتى أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعد ، فساقه الى هذا الحى من الأنصار ، لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم الى الله ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به فى العام القادم .

ولما عادوا الى المدينة ، بشروا بالاسلام فى قومهم ، فأسلم من أسلم ، وكثر فى المدينة الحديث عن الاسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا

الرسول ــ كما تحدثوا بذلك عن أنفســـهم ــ : « على الا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف » .

قال : « فان وفيّتم فلكم الجنة ، ومن غَشِى من ذلك شيئا كان أمره الى الله : ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه » .

ان هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، انها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر الى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف . انه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وانما قيد ذلك بقوله : « فى معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ، فستقر ــ لا مناص ــ بأنها وثيقة الهية .

وعاد المسلمون الى المدينة بأخلاق أخرى ، وبوجوه عليها نور الاسلام ، وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون الى الله مبشرين ومنذرين .

ثم ... ثم عادوا فى العـــام التالى ، وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان ، والتقوا برســـول الله صلوات الله عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ،

يمنعه ، والله ، منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ؛ يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحــرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة . فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وانا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

قال : وتلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عليهم القرآن ، ثم دعاهم الى الله ورغبهم فى الاسلام وذكر الذى اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالايمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله ، بايعنا فنحن أهل الحلقة (١) ورثناها كابراً عن كابر . . .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله ،صلى الله عليه وسلم : أخفوا جرسكم (٢) ، فان علينا عيونا وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون

(١) أهل السلاح .
(٢) كلامكم وصوتكم .

كلامنا منكم ، فانا نخاف قـــومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم تتفرقوا الى محالّكم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباسَ بن عبد المطلب ، ثم قال : أَبْسط يدك يا رسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ــ فيما يقال ــ : البراء بن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

ان موسى أخذ من بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ؛ فانما يختار لى جبريل » .

فلما تخيرهم قال للنقباء : « أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل « على قومى » .

قالوا : نعم . . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انفضوا الى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة يا رسول الله والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وســـلم : « انا لم نؤمر بذلك فانفضوا الى رحالكم » .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم ، طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقو[illegible]
أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، ف[illegible]
ضاقوا بالأمر ذرعا ، شكوا الى رسول الله ، صلى الله ع[illegible]
وسلم ، واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبر[illegible]
بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخر[illegible]
اليها .

وأخذ المسلمون يهاجرون سرا ، بادية عليهم آثار ترب[illegible]
الرسول ، صلى الله عليه وسلم : من الثقة بالله ، والصبر
وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على [illegible]
يكونوا فى جميع أحوالهم : من جنود الله ، مهاجرين الي[illegible]
للعمل على اعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، ولا فى نظر أصحابه ، ركونا الى الدعة والهدوء ، [illegible]
ميلا الى الراحة والسكون ، وانما كانت : محاولة مصممة
على قيادة المعركة فى سبيل الله ، من جبهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون الى الله ورسوله : يهاجرون
سرآ : جماعات أو فرادى ، حتى لم يبــق بمكة منهم الا
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعلى ، رضى
الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وعندئذ آن لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن
يهاجر .

ها هو ذا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على مشارف مكة ، ينظر اليها على أمل واثق من أنه سيعود اليها مبشرا بدين الله عاملا على أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله ، انك لأحب البلاد الى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق الى غار ثور فدخلاه . ولما علم المشركون بالأمر ، ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على الا يفلت المهاجران الى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول : ربى الله .

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة ابو جهل ، وعرضها على الوضع التالى :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما ، نهدا ، جلدا ، ثم نعطيه سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنوا عبد مناف الوقوف فى وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية ، فنعطيهم اياها .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » .

دخل رسول الله ، صلوات الله عليه ، هو وابو بكر

الغار ، مختفيين ، وكان سيدنا ابو بكر حزينا ، خوفا على الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الالهى على لسان الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، يملؤه ثقة وتفاؤلا : « لا تحزن ؛ أن الله معنا » .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار ، وأصواتهم الصاخبة ، التى تعلن عن سخطهم ، وغيظهم المكبوت ، قال : لو نظر أحدهم الى موضع قدميه لأبصرنا ، ويبتسم رسول الله ، صلوات الله عليه ، ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! » .

ولما انتهى الطلب ، وعاد المشركون من حيث أتوا ، خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هو ورفيقه ، وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججا بالسلاح ، على فرس تسابق الريح ، ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قتيلا أو أسيرا .

فلما دنى منهما ، دعا عليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فرسخت قوائم فرسه ، فقال : يا محمد ، أدع الله أن يطلق فرسى وأرجـــع عنك وأرد من ورائى ، ففعل ، فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ، صلى

الله عليه وسلم ، فقال : ارجعوا ، فقد استبرأت لكم ما هاهنا ، وقد عرفتم بصرى بالأثر ، فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل الى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البـــدر علينا من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينـــا ما دعـــا لله داع
أيهـــا المبعوث فينا جئت بالأمـــر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رســـول الله ، صلوات الله عليه فى المدينة :

١ ـ بناء المسجد ، المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقا لمبدأ من مبادىء الدين الاسلامى ، يتمثل فى قوله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة » .

ونحن قوم جفوا نبيـــا بأرض
ألفته ضـــبابها والظباءُ
وســـلوه وحن جـــذع اليه
وقـــلوه ووده الغـــرباءُ
اخرجوه منهـــا وآواه غار
وحمـــته حمـــامة ورقاءُ
وكفته بنســـجها عنكبـــوت
ما كفته الحمـــامة الحصـــداءُ

واختفى منهم على قرب مـرآ
ه ومن شـــدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينـــة واشتا
قت اليـــه من مكة الأنحـــاء

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية . ورمز روحى جميل . يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته ؛ بل فى كل نفس من أنفاســـه . ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز ؛ عن الهجرة الروحية ؛ عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان ؛ والهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ويتجاوز الزمان والمكان ؛ قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة ؛ وفى القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله عليه ؛ فيما رواه البخارى رضى الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ؛ والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحى نتبينه فى وضوح سافر فيما يلى :

يقول الله تعالى :

« الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ،

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

فى هذه الآية الكريمة : يصور الله ، تعالى ، اخراج الكفار للرسول ، صلوات الله عليه ، من مكة ، وهجرته مستخفيا فى جنح من الليل مفارقا البلدة التى ولد بها ، والتى بها عشيرته وقومه ، الى بلدة يجد فيها حرية الدعوة الى الله . . .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى ، يصوره بأنه انتصار فى الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله عليه مختبئا فى الغار هو والصديق رضوان الله عنهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصارا مبينا : لأنها فرار الى لله ، والفرار الى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل . « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وان الله لهو خير الرازقين » .

ونحن مأمورون بالفرار الى الله ، أى بالهجرة اليه ، « ففروا الى الله ، انى لكم منه نذير مبين » ، وسيدنا ابراهيم عليه السلام قال : « انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » . وقال : « انى ذاهب الى ربى سيهدين»

والفرار الى الله والهجرة اليه والذهاب اليه من صفات المؤمنين الصادقين : انهم يفـرون الى الله ويهاجرون اليه يوميا : فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، واذا كانت هجرة بعض الناس انما هى الى دنيا يصيبها ، أو الى امرأة ينكحها ، فهجـرة المؤمن الصادق خالصـــة لله وحده . متمحضة لوجهه الكريم ، واذا ما كانت كذلك كان الله معه : يقول ، صلوات الله عليه للصديق : « لا تحزن ان الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين ، لا شريك له . ومن كان كذلك فان الله ينزل عليه السكينة ، أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين : فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادىء البال سعيدا ولو ألقى فى النار لأنه سوف لا يشعر بها ، الا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة اليه تعالى .

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة اليه سبحانه انما هى النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله عليه : «انما الأعمال بالنيات ، وانمـــا لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجـرته لدنيـــا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجـرته الى ما هاجر اليه » .

فاذا ما توجهت النية بالأعمال الى الله تعـــالى كانت الأعمال هجرة اليه ، أما اذا لم تتوجه النيـــة اليه ، فان

الأعمال ، ولو كانت خيرا فى ظاهرها ، تكون هباء منثورا ، ومن هنا يتبين المؤمنون حقا فساد الأفكار التى يروجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : ان العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لارضاء الضمير . ان كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع لأن العلم والفن اذا لم يتجه بهما أصحابهما الى الله أسساً وغايات انحرفت بهما الارادات والنيات الى الشر والافساد : فشقيت بهما الانسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فان معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى الا عن طريق الدين وقد حاولت العقول — مستقلة عن الدين — تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل الى نتائج .

والمؤمن اذن يهاجر الى الله بعلمه ، ويهاجر اليه بفنه ، ويهاجر اليه بعمله الخير .

على أن العبادات الاسلامية على تعددها واختلافها ، انما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة الى الله تسمو بالمؤمن صعدا الى الصلة بالله ، والى النعيم فى رضوانه ، والى السعادة فى رحابه : فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة الى الوقوف بين يدى الله ومناجاته — لحظة من الزمن — فهى هجرة الى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربا الى الله فهى ذهاب اليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية النفس وقربى الى الله فهو ذهاب اليه .

أما مناسك الحج فانها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم « لبيك اللهم لبيك » .

وختاما فان الصورة التامة الكاملة للهجرة الاسلامية الكبرى ، انما تتمثل فى أروع مظاهرها فى قوله تعالى :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

يقول صلوات الله عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جهاد فى كل ميادين الجهاد ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فالى هذه الهجرة الكبرى أيها الاخوة المؤمنون فان فيها الخير كله .

وبالله لتوفيق ..

الجهاد

ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام : هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو : مات على شعبة من النفاق » .

ان النبى العابد ، هو : النبى المكافح ؛ وان نبى الرحمة ، هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الاسلام ، الا فى سبيل الله ، فاذا ما خرج عن سبيل الله : لم يكن اسلاميا ، وكل ما فى سبيل الله : انما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردا وترتيبا وتفصيلا ، وانما نذكر منها عبرا ، حتى ننتهى الى فتح مكة .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون والصناديد : من المهاجرين والأنصار : يفرون أحيانا ، ولكنه ، صلوات الله عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات : لا يتزحزح عن موقفه ،

ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت فى مكانه فى غزوة أحد التى غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون ، بكل ما استطاعوا ، أن يقضوا عليه ، صلوات الله عليه .

ووقف ثابتا فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم اذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع ، وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟!

ولقد كان واضحا فيه ، صلوات الله عليه : ما يقوله سيدنا على وهو من هو ـ بطولة وفروسية ـ : « كنا اذا حمى الوطيس : أى الحرب : اتقينا برسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أى احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا الى العدو » .

وكان ، صلوات الله عليه ، مع التجائه الى الله تعالى : يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر : يحكم الأمر احكاما ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره فى جميع أموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيما محكما ، ثم اتجه الى الله يدعوه ، وكان دائما متفائلا : كان متفائلا ، حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون باذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد : شذوذا فى القاعدة ، وما كان ذلك الا لأنهم خالفوا ـ متأولين ـ أوامر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، غير أن تفاؤله ، صلوات

الله عليه : لم يفارقه لحظة ؛ اذ أنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله عليه ، بلم شعثهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورا ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله ، صلوات الله عليه ، أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ؛ يسانده اليهود والغادرون ؛ ليقضوا على الاسلام فى المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا ، وقد كان المسلمون : يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، ومنعا من وصول العدو اليهم فى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب ، رضى الله عنه : القصة التالية ، حسبما رواه الامام أحمد :

« أمرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فجاء ثم هبط الى الصخرة ، فأخذ المعول ، وقال : بسم الله ، فضرب ضربة ، فكسر ثلث الحجر وقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله انى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله انى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية

الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله انى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين وان كان قد دعا الى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : ان محمدا يعـــدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على انفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر الى نهـــاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقـــدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهـــديك صراطا مســتقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » .

ان آيات الفتح هذه ــ نزلت فى أثناء عودة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة ، بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، وقد نزلت تشير الى فتح مكة وتبشر به . ولقد أوحاها الله الى رسوله ليلا ، فلما أصبح صلوات الله عليه قال : لقـــد نزلت على الليلة سورة : هى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى وانما هى تشير ـ على الخصوص ـ الى الآفاق العليا من الرضوان الالهى . انها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ؛ والتى سمت بالرسول ، صلوات الله عليه ، الى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

انها : بشرى من الله بفتح مبين ، وغفران شامل ، وانمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز . وهذه منح الهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وانما تفسر أيضا ، ومن باب أولى ، بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الالهية ـ اللهم لك الحمد والشكر ـ ولذلك فاننا ، حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وانما الذى يحتل ذلك انما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى ، المثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى الى الانسانية ، أى فى سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه .

ومهما يكن من شيء ، فان قريشا . نقضت عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله . صلوات الله عليه ، وكانت الفرصة مواتية ، لأن يركز الله تفكير رسوله صلى الله عليه وسلم فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ، ولا تشرك به شيئا ؟ !

« ان الشرك لظلم عظيم » .

أما آن لقلوبهم ، أن تخشـــع لذكر الله وما نزل من الحق . ؟!

لقد دعا سيدنا ابراهيم ـ فى رحاب مكةـ ربه مبتهلا ضارعا قائلا :

« ربنا ، وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم »

وها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد بعثه الله اليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟!

وهذا البيت العتيق ، الذى رفع قواعـــده ابراهيم واسماعيل قائلين : « ربنا تقبـــل منا انك أنت السميع العليم » . هذا البيت الذى عهد الله لابراهيم واسماعيل ، أن يطهراه للطائفين والعاكفين ، والركع السجود . هــذا البيت : قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة ـ فى وقاحة سافرة ـ الشرك بالله .

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها الى الله .

وصمم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزم لا يلين على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين : (أعنى مكة)

وأن يطهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود . وعبثـــا حاول أبو سفيان ــ الذى أرســلته قريش سفيرا بينها وبين الرسول ــ أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان ــ رغم دهائه ولباقته ــ عونا من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يجلس عليه أبوها ــ زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة ــ فلما سألها مستفسرا أرغبت به عن الفراش أم رغبت بالفراش عنه ، قالت هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مغضبا قائلا : « والله لقد أصابك من بعدى شر » وأخطأ أبو سفيان ، فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

وعبأ رسول الله صلوات الله عليه ، القوى وخرج يوم الأربعاء ، بعد العصر ، لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى اذا كان بالكديد ، واجتمع الناس اليه ، أخذ اناء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس ، من قبل الرخصة ، فان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قبلها ، ومن صام فان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : صام .

حتى اذا بلغ صلوات الله عليه « مر الظهران » ــ وهو مكان بالقرب من مكة ــ أمر الجيش بالأفطار ، لأنه ، فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والايمان .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما رآه أبو ســفيان

وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال ، بعقليته الجاهلية ، للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال العباس ، بعقليته الاسلامية : ويحك ! انه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان ، فنعم ، وتوجه رسول الله نحو مكة محذرا من اراقة الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة ، وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » . عزله النبى ، صلى الله عليه وسلم . فقد كان رسول الله صلوات الله عليه يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ودخل رسول الله ، صلوات الله عليه ، مكة دون مشقة ، وكان أول ما فعل ، أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيأة النساء ، ورأى ابراهيم ، عليه السلام ، مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن ابراهيم والأزلام ؟ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه الى الأصنام ، فحطمها مرددا قوله تعالى :

« جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » .

واذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قد حطم الأصنام المادية ، فانه ، من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد

حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشـــهوات شرك ، وكلّ عمل لا يقصد الانسان به وجه الله ، فانما هو من أعمال الشرك . وفى هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله ، صلوات الله عليه :

فانه ، حينما اجتمعت قريش اليه ، نظر اليهم وقال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال وهو يبكى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لأخوته :

« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » .

فكان هذا اليوم حقا يوم المرحمة .

وبالله التوفيق .

النبى العابد

الِف النسك والعبادة والخلوة طفلا وهكذا النجباء
واذا حلّت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

ان أول آية نزلت من القرآن الكريم انما هى :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، ولقد كانت هذه الآية الكريمة ـ بوضعها ، ومفهومها ، وجوها ـ شعارا عاما وتوجيهاً شاملا ، فما كانت تعنى ، بروحها ، القراءة فحسب ، وانما كانت تعنى : أنه ـ منذ هذه اللحظة ـ يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركا .

ولقد تأكد هذا الاتجاه ، وأصبح سافرا فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله ، صلى الله عليه وسلم :

« قل : ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ، اذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

ان الله سبحانه قد أخبر فى قرآنه الكريم : أنه ما خلق

الجن والانس الا للعبادة ، يقول سبحانه :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التى يجب أن يعمل الانسان على تحقيقها اذن انما هى : العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقل : رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .

« واسجد واقترب » .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

« واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه ، وادبار النجوم » .

وما من شك فى أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعــه طاعة ، انه سبحانه الغنى المطلق ، والمانح المطــلق ، والمعطى المطلق ، انه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغنى ، انه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج . .

وما كانت العبادة الا لأجل تكميل الانسان ، فمن فضل الله على عباده : أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ، فضلاً من الله ورحمة ، انها راجعة اليه فى الدنيا ، وراجعة

اليه فى الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو انثى ــ وهو مؤمن ــ : فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ومن عناية الله بالأمة الاسلامية ، وبرسوله الكريم : أن أول كلمات من الوحى : كانت توجيهاً للرسول وللمسلمين : بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ؛ لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلا أو شربا مثلا .

واستجاب الرسول ، صلوات الله عليه ، لهذا التوجيه السامى ، الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحى .

ان الرسول ، صلوات الله عليه ، حينما فاجأه الوحى ، فعاد يرجف فؤاده الى منزله الطاهر ، وقال : زملونى زملونى : نزل عليه قوله تعالى :

« يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا » .

لم يقل له سبحانه : يا أيها المزمل لا تخش بأسا ، أو يا أيها المزمل ، لا ترع ، فان ذلك من عند الله . وانما كان الرد على رجفة الفؤاد : أمرا بالعبادة .

وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب : أمر بالعبادة ، مثل :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع

الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى » .

وهنا علق ، سبحانه ، الرضى ، وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد : على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ؛ ويشير الله الى ذلك أيضا فيقول :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » .

واستجاب الرسول ، صلوات الله عليه ، استجابة كاملة ، للتوجيه الالهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ أذ أنه كان يعملها بسم الله : لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها ، بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ، بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه ، فكان ذلك توجها به الى الله فكان عبادة له ، وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله ، صلوات الله عليه : أول المسلمين » .

أولهم منذ أن خلق الله العالم الى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، باعتبار أن الدين عند الله ــ منذ الأزل الى الأبد ــ : انما هو الاسلام .

لقد صير الرسول ، صلوات الله عليه ، الحياة كلها عبادة لا تفتر .

وإذا ما استحالت الى عبادة ، فقد استحالت الى قوة ، ارأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ، ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش عبادة ، ومن ، ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ . وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟ .

مهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول ، صلوات الله عليه ، استجابة تامة لما أراد الله ، سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكرا لها ، فقال سبحانه :

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ، ونصفه ، وثلثه » .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التى تصور هـذا الجانب من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، ومن وراء ايضاح هذا الجانب من حياته ، صلوات الله عليه ، أهداف :

١ ــ تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ ــ رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحيــة النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل ، فى نفاسته العبادة ؛ والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك انما هى « صلّ » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب النفسى أياً كان .

ومتى وجدت النفس المطمئنة ــ والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها الا بالعبــادة فان الكثير من الأمراض

الجسمية نفسها يزول باقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم انه ـ باقرار أطباء الأجسام أيضا ـ لا يكون الانسان المطمئن عرضة لمايتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية.

٣ ـ وهذه الاسوة بالرسول ، صلوات الله عليه ، التى نرجوها : ستكون أيضا سببا فى تفريج الضيق المادى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ... » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن : فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » .

وهذه الأحاديث التى نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال ، فانا قد تحرينا تحريا كاملا أن لا نذكر فيما يلى ـ الى آخر الكتاب ـ حديثا ضعيفا .

الصـــلاة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ !

قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟ » .

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

« صليت مع النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ؟

قال : هممت أن أجلس وأدعه » .

ولعل لابن مسعود ، رضى الله عنه عذره ؛ فقد كان صلوات الله عليه يقرأ فى الركعة الأولى مثلا : سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وفى الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ، حينما كان يفعله منفردا فى جوف الليل .

أما اذا كان مع الناس فانه يخفف .

وقد ورد فى السنّة الصحيحة : اطالة الرسول ، صلوات الله عليه القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل ، وبسبب هذه الاطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز احدى عشرة ركعة .

« عن عائشة ، رضى الله عنها : كان النبى ، صلى الله عليه وسلم : يصلى من الليل احدى عشرة ركعة ، فاذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجىء المؤذن فيؤذنه » .

وكان الرسول ، صلوات الله عليه : يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

« أتيت النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزير المرجل ، يعنى يبكى » .

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول ، صلوات الله عليه بقوله :

« ان بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان ، صلوات الله عليه ، يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس ، رضى الله عنه ، قال :

« كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يتوضأ لكل صلاة . قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول ، صلوات الله عليه ، فى الصلاة :

كان عند الاقامة يقول :

« أقامها الله وأدامها » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم ، اذا قام الى الصلاة طأطأ رأسه » .

« قالت عائشة ، رضى الله عنها : « لم يكن ، صلى الله عليه وسلم ، على شىء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتى الفجر » .

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، كثيرا كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى منه الصبح حتى تطلع الشمس فاذا طلعت قام » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم : يدخل فى الصلاة ، فيريد اطالتها ، فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم : يقرأ بسورة « الجمعة » فى الركعة الأولى و « باذا جاءك المنافقون فى الثانية » .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرأ فى المغرب بالطور » .

« وكان ، صلوات الله عليه ، يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفا ، وانها لآخر ما سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » .

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق ، والقرآن المجيد » الا عن لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس» .

« كان ، صلوات الله عليه ، يقرأ فى صبح الجمعة : « الم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الانسان حين من الدهر » رواه الشيخان من حديث أبى هريرة ، وانما كان يقرؤهما كاملتين وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان ، صلى الله عليه وسلم ، يقرأ فى العيدين وفى الجمعة : « بسبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية » .

وكان « يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

« وكان ، صلوات الله عليه ، يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت » .

« وفى السجود يقول ، صلوات الله عليه : اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

« وعن حذيفة ، كان يقول ، صلى الله عليه وسلم ، فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى » .

« وعن عائشة ، رضى الله عنها : كان ، صلى الله عليه وسلم ، يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى يتأول القرآن » رواه مسلم ، ومعنى يتأول القرآن يعمل بما أمر به كما فى قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » فكان ، صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة ، المستوفى ما أمر به فى الآية » .

الصيام

أما اذا جئنا الى رمضان ، والى الصيام ، على وجه العموم ، فالأحاديث التالية ، توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التى رويناها : انما بينت اشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .

فرض رمضان فى السنة التالية من الهجرة ، فتوفى سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد صام تسع رمضانات .

عن عائشة ، رضى الله عنها : « كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : اذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجد ، وشد المئزر » .

وعنها ، قالت : « كان ، صلى الله عليه وسلم ، يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير ما لا يجتهد فى غيره » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، تعالى » .

« كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوما » .

« اذا دخل العشر الأخير طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحورا » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه ، صلوات الله عليه ، واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يواصلوا ، قالوا : انك تواصل ، قال : لست كهيئتكم انى اظل اطعم وأسقى » .

عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : « كان رسول

الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وهى ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة ، رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يدعهن : صيام عاشوراء ، والعشر ـ أى تسـع ذى الحجة ـ والأيام البيض من كل شهر ، وركعتا الفجر » .

« كان ، صلوات الله عليه ، يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس » .

« كان النبى ، صلوات الله عليه ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر » .

ومن العبـادة : الذكر

« لا يقعـد قوم ، يذكرون الله ، الا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : « كان ، صلوات الله عليه ، يذكر الله على كل أحيانه » .

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثـل الحى والميت » .

وأفضل الذكر : قراءة القرآن .

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسـنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« ان الذى ليس فيه فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الخرب » .

«اقرءوا القرآن ، فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه» .

وبينما جبريل ، عليه السلام ، قاعد عند النبى ، صلى الله عليه وسلم ، سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط الا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط الا اليوم ، فسلم ، وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته » .

ولأن لا اله الا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى : قال ، صلوات الله عليه :

« أفضل الذكر لا اله الا الله » .

عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟!» .

فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : لا حول ولا قوة الا بالله » .

« قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لقيت ابراهيم ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى بى ، فقال : يامحمد ، أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم ، يقول بأعلى صوته
لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ».

« من قال لا اله الا الله وحده ، لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة : كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل اكثر منه ».

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة : حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر ».

« اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه : قال الشيطان لأصحابه : لامبيت لكم ولاعشاء ، فاذا دخل فلم يذكر الله تعالى ، عند دخوله : قال الشيطان : أدركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى ، عند طعامه : قال : أدركتم المبيت والعشاء ».

« الطهور : شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ».

« ان احب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » .
« لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكبر : احب الىّ مما طلعت عليه الشمس » .
« كلمتان : خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ...

الدعاء

وقال ، صلوات الله عليه وسلامه : « الدعاء هو العبادة» .
أما أحسن أوقات الدعاء فان الأحاديث التالية تذكر بعضها :
« إقرب ما يكون العبد من ربه : وهو ساجد فأكثروا الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » .
« قيل لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة »
« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند راسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » .
« لا يزال يستجاب للعبد ، مالم يدع باثم او قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة الا أتاه الله اياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : اذن نكثر ، قال : الله أكثر » .

« كان ، صلى الله عليه وسلم ، يحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سوى ذلك » .

ومن جوامع دعائه ما يلى :

« أتاه رجل ، فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربى ؟!

قال : قل : اللهم اغفـــر لى وارحمنى ، وعافنى ، وارزقنى ، فان هؤلاء : تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم انى أسألك موجباتِ رحمتك ، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبى أمامة ، رضى الله عنه ، قال : دعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا .

قلت : يا رسول الله ، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا .

فقال : الا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟! تقول : اللهم انا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ، صلى الله عليه وسلم

وانت المستعان ، وعليك البــــلاغ ، ولا حول ولا قوة الا بك » اهـ .

« اللهم انى أعوذ بك ، من منكرات الأخلاق ، والاعمال ، والأهواء » .

« اللهم ألهمنى رشدى ، واعذنى من شر نفسى » .

عن شهر بن حوشب ، قال : « قلت لأم سلمة ، رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أذ كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك » اهـ .

« اللهم أصــلح لى دينى الذى هو عصـــمة أمرى ، واصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى اليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لي فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر » .

« اللهم مصرف القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وتحتى نورا ، وامامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومن أدعيته ، صلوات الله عليه فى الصلاة :

« عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، انه قال لرسول

الله ، صلى الله عليه وسلم : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى .
قال : قل : اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، انك أنت الغفور الرحيم » .

« وكان صلوات الله عليه يقول بين السجدتين : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » .

عن معاذ ، رضى الله عنه ، أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أخذ بيده وقال : يا معاذ والله ، انى لأحبك ، ثم أوصيك : يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة : أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الافطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت »

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ، انك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب ، أيضا :

« لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما اذا كان الكرب شديدا فيحسن أن يكرر الانسان دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم ، اليك أشكو

ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وأنت ربى الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

واذا خاف قوما قال : « اللهم انا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« الا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك ؟ قل اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك » .

وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال اذا خرج من بيته : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

وعند النوم واليقظة :

« اذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول اللهم باسمك اموت وأحيا . واذا استيقظ قال الحمد لله الذى أحيانا بعدما اماتنا واليه النشور » .

وعند الأكل :

« الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » .

وعند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

واذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والايمان ، والسلامة والاسلام، ربى وربك الله هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا اله الا أنت ، أستغفرك وأتوب اليك » .

وعندما يودع شخصا :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا فيقول : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » .

ومن العبادة « الصلاة على النبى »

والصلاة عليه أمر بها الله سبحانه فى كتابه فقال :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . والصلاة على النبى تكون بأية صيغة ، وكل الصيغ فى الصلاة عليه مباركة ، والمأثور منها هى الصيغة التى فى التحيات .

والذكر بالصلاة على الرسول صلوات الله عليه ثماره شتى ، وفوائده عدة ، فضلا عن العبادة نفسها . ونذكر من هذه الصيغ صيغتين الأولى منهما للخروج من الضيق ، ولتيسير المعسر ، وللخروج من الشدة ، وللفرج على جميع أنحائه وللوصول الى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله المغفور له الشيخ أحمد أبو هاشم وهى ما يلى :

اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرءوف الرحيم الذى أخبر عن ربه الكريم : أن الله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج قريب ، وسلم .

أما الثانية : فاننا نسميها الصيغة التجريدية لأنها لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهى قياس موفق على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر بـ « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » . والصيغة هى ما يلى :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك » . وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضى صاحب الضريح المبارك فى شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو فى رؤية منامية ، وهى صيغة مباركة ، وانا ننصح بتكرارها كلما أتيح للانسان ذلك .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

من هديه ، صلوات الله عليه ، فى سبب بعثته .

« انما بُعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« انما بعثث لأتمم مكارم الأخلاق » .

« انما بعثت لأتمم صالح الأُخلاق » .

« بعثت بالحنيفية السمحة » اهـ .

أما هو صلوات الله عليه فانه رحمة مهداة الى العالم .

« أيها الناس انما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أنى رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » . رفع من اتبعوه عند الله ووضع أمثال أبى جهل وأتباعه من المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفى ميزان التقوى . . على انه :

« ما من شيء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وان الله يبغض الفاحش البذيء » .

والأخلاق لا وزن لها بدون الاخلاص ، ومن هديه صلوات الله عليه فى ذلك : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الي ما هاجر اليه .

« ان الله لا ينظر الى اجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » .

« دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » . قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها ، ومعناه : اترك ما تشك فى حله واعدل الى ما لا تشك فيه »

« ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به ، فعرّفه نعمه فعرفها .

قال فما عملت فيها ؟!

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ؛ قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم امر به ، فسحب على وجهه حتى القى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك . ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ، ثم امر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

ومن المنكر : السبع الموبقات :

اجتنبوا السبع الموبقات .

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » متفق عليه.

الموبقات : المهلكات .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد : اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن : كالبنيان : يشد بعضه بعضا » .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه ، وماله »

« عن أبى بكر ، رضى الله عنه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : فى خطبته يوم النحر بمنى ، فى حجة

الوداع ان اموالكم ، وأعراضكم ، ودماءكم : حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » .

« سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر » .

« اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : انه كان حريصا على قتل صاحبه » .

« المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ؛ كل المسلم على المسلم : حرام : عرضه ، وماله ، ودمه ؛ التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر : أن يحقر أخاه المسلم ! » .

« المسلم : أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه : كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ؛ فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما : ستره الله يوم القيامة » .

« المسلم : من سلم المسلمون من لسانه ويده ؛ والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر : يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه .

ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما : سهل الله له به طريقا الى الجنة

وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتـــاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

« ومن بطأ به عمله : لم يسرع نسبه » ، اهـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة : فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : اذا أتيت معسرا فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه » .

عن أبى هـــريرة ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « أن رجلا زار أخاً له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال : فانى رسول الله اليك : بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل ، يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟!

قال : أما علمت أن عبدى فلانا : مرض فلم تعده ؟ ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ ! .

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يا رب ،

كيف اطعمك وانت رب العـــالمين ؟! قال : اما علمت انه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمـــه ؟! اما علمت انك لو اطعمته لوجدت ذلك عندى ؟!

يا ابن آدم استسقيتك فلم تســـقنى ! قال : يا رب كيف أسقيك وانت رب العالمين؟! قال : أستسقاك عبدى فلان فلم تسقه ! اما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟! » .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، فى العلم :

« من سلك طريقا يبتغى فيه علما : سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العـــالم على العابد : كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء : لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم ، فمن اخذه اخذ بحظ وافر » .

« من خرج فى طلب العلم : فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجـــل بامرأة الا ومعها ذو محـــرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذى محرم .

فقال له رجل : يا رسول الله ، ان امـــرأتى : خرجت حاجّة ، وانى كُتبتُ فى غزوة كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك » .

« لا يخلون احدكم بامرأة الا مع ذى محرم » .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، فى الجهاد :

عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الجهاد : كلمة عدل عند سلطان جائر » .

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو : مات على شعبة من النفاق » .

« قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : تضمَّن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه الا جهاد فى سبيلى ، وايمان بى وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ، والذى نفس محمد بيده ،، ما من كَلْم يُكلَم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحه : ريح مسك ، والذى نفس محمد بيده ، لولا أن اشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله ، فأقتل ؛ ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » . والكلم : الجرح .

خاتمة

فى مقام الرسول « صلى الله عليه وسلم » فى الآخرة

عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما ـ قال : انا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك ؟ ! يجمع الله الأولين والآخرين فى صــعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول النـــاس الا ترون ما أنتم فيه الى ما بلغكم ؟! ألا تنظرون من يشــفع لكم الى ربكم ؟! فيقول بعض الناس لبعض أبوكم آدم ، فيأتونه ، فيقولون يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا الى ربك ؟! الا ترى الى ما نحن فيه وما بلغنا ؟! فقال : ان ربى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعــده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى .. نفسى .. نفسى ؛ اذهبوا الى غيرى اذهبــوا الى نوح فيــأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل الى الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، الا ترى ما نحن فيه ؟! الا ترى ما بلغنا ؟!

الا تشفع لنا الى ربك ؟! فيقول : ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، أذهبواالى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون : يا ابراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! فيقول لهم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانى كذبت ثلاث كذبات ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى اذهبــوا الى موسى ، فيــأتون موسى ، فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، أشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! فيقول : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانى قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟! فيقول عيسى : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية : « فيأتونى ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ،

اشفعلنا الى ربك ، الا ترى مانحن فيه ؟! فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تُشفع فأرفع راسى فأقول : أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال : والذى نفسى بيده ، ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة : كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى » .

وبعد فانا نختم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة التالية :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم : يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

اهم المراجع

طبقات ابن سعد .

سيرة ابن هشام .

رياض الصالحين .

صحيح البخارى .

صحيح مسلم .

الأنوار المحمدية للنبهانى .

المكتبة الثقافية

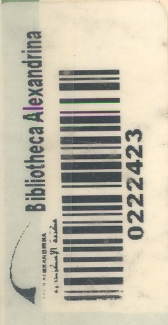
- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقرشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

خيال الظل

الدكتور عبد الحميد يونس

١ أغسطس ١٩٦٥





الثمن ٢ قرش

مكتبة مصر